أن يطيب قلبي

عمرو أحمد

مؤسسة المبدع المغير

كَاد قَلبِي أَن يَطِير

سبع سموات

عمرو أحمد

كادَ قَلبي أن يَطيرَ، وذلك أوَّلُ ما وقر الإيمانُ في قلبي

جبير بن مطعم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فقد جاءَ جُبَير بن مطْعِم ضمن أسارى بَدرٍ وهو على الشرك قبل أن يسلم، فلما أسلم حكى موقفًا عجيبًا!

يقول: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ قرَأ في المغربِ بالطور، فلما بَلَغَ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

كادَ قَلبي أن يَطيرَ، وذلك أوَّلُ ما وقر الإيمانُ في قلبي.[1]

١- البخاري /٤٤٥٧٣

قارئي الكريم..

فكّر في هذا الأسير وهو لا يدري هل سيقتل أم سيباع؟

هل كان في حالة تسمح له بتدبر القرآن؟

فكر معي في قاتل حرام بن ملحان رضي الله عنه إذ وقر الإسلام في قلبه لحظة أن قتله، فأمسك حرام أحشاء نفسه ومسح وجهه بدمه وجعل يقول: «فزت ورب الكعبة»، هل كان قلب هذا القاتل هنا مستعدًا للنصح والدعوة؟! فكيف أسلم؟!

إن أنوار الهداية ليست دوما تسطُع بترتيب درامي مؤثر، بقدر ما هي غالبًا تفجأ القلب بضيائها وتغيره، بل وتطيره!

أنت أيضًا تستطيع أن تتذكر الذين هداهم الله في لحظة دون مقدمات، إنني مذهول من توبة مطرب أصلحه الله وهو نائم!

يقول: استيقظت من النوم فحذفت كل الأغاني دون سبب ودون تفكير!

أشهد أن الله يهدي من يشاء، أليس خطيب الجمعة يقول في خطبة الحاجة قبل أن يتفنن في الدعوة: «**من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»[1]، فما مغزى

١- مسلم ٨٦٧

هـذه الكلمـة فـي بدايـة الموعظـة؟ إن المغـزى هـو: أن كل مـا سـيقوله الخطيـب لـن يهـدي إلا بأمـر الله، وأن كل مـن كتبـت عليـه الضلالـة فلـن تغيـره ألـف خطبـة وموعظـة.

قارئي الحبيب..

إن كنت لا تهوى القراءة، فإن هذا الكتاب رحلة طيران.

وإن كنـت تحـب الطيـران، فطيـران القلـوب ألـذ، وإليـك هـذا الكتـاب لترتقـي بقلبـك فـوق السـحاب!

فـالله تعالـى خلـق خلقـه واختـار علـو نفسـه عليهـم، ثـم اختـار لمـا يرضـاه العلـو والرفعـة، ولمـا أبغضـه أسـفل سـافلين.

قـال الله تعالـى: ﴿مَـن كَانَ يُرِيـدُ ٱلْعِـزَّةَ فَلِلَّـهِ ٱلْعِـزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْـهِ يَصْعَـدُ ٱلْكَلِـمُ ٱلطَّيِّـبُ وَٱلْعَمَـلُ ٱلصَّـٰلِـحُ يَرْفَعُـهُۥ ۚ﴾[1]، فالأعمـال إن صلحـت فمقامهـا أن ترفـع، وإن العامليـن المَرْضِيّينَ أيضًـا يرفعهـم الله؛ قـال تعالـى: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًـا عَلِيًّـا ۝٥٧﴾.[2]

١- فاطر: ١٠

٢- مريم: ٥٧

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**».[1]

وإن منازل الناس تباينت حتى تقدم بعضهم ما لا تجتازه الملائكة، وأوحى آخرون إلى الشياطين!

وإن القلوب لو كانت في الأصل ثابتة ما سميت قلوبًا، وإن تقلبها يتجاوز بها الأراضين والسماوات؛ قال أَحْمَدَ بْنَ خِضْرَوَيْهِ: الْقُلُوبُ جَوَّالَةٌ إِمَّا أَنْ تَجُول حَوْلَ الْعَرْشِ وَإِمَّا أَنْ تَجُول حَوْلَ الْحَشِّ.

وقال ابن القيم رحمه الله: فكيف بمن استبدلَ بمحبة خالقه، وفاطره، ووليِّه ومالكِ أمره؛ الذي لا صلاحَ له، ولا فلاحَ، ولا نعيم، ولا سرور، ولا فرحة، ولا نجاة إلا بأن يوحِّدَه في الحبِّ، ويكونَ أحبَّ إليه ممَّا سواه؟

فانظر بالله بِمَن استبدلتَ؟ وبمحبَّة من تعوَّضت؟ رضيت لنفسك بالحَبْس في الحشِّ، وقلوبُ مُحبِّيه تجولُ حولَ العرش.

فلو أقبلتَ عليه، وأعرضت عمَّا سواه؛ لرأيتَ العجائب،

١- مسلم ٨١٧

ولأمِنْتَ من المتالفِ والمعاطب، أوَ ما علمتَ أنَّه خصَّ بالفوز والنعيم من أتاه بقلبٍ سليم، أي سليم مما سواه، ليس فيه غير حبّه واتباع رضاه.[1] اهـ.

وهكذا فإن للروح معراجًا ترتقي في سماواته، وإن للقلب سماوات يستظل بها كما يستظل البدن.

ولقد اخترت لك في هذا الكتاب سبع سماوات إيمانية تصعد فيها بروحك نحو رضا الله، وهي سبع يستظل بها قلبك فيحتمي من سيول الشبهات، ولهيب الشهوات، وهي:

(النجاة - الفرار - السماع - الخوف - الرجاء - الإخلاص - الحب)

وألفته من بين تفاسير ابن كثير والطبري والقرطبي للقرآن الكريم، وشروحات ابن حجر والنووي وغيرهما للحديث النبوي الشريف، ومؤلفات ابن تيمية وابن القيم وابن رجب الحنبلي وابن الجوزي وابن أبي الدنيا وغيرهم.

مشترطًا فهم السلف في شروحه، وتصحيح الشيخ الألباني والأرناؤوط رحمهما الله لما في غير الصحيحين من أحاديثه.

وجعلته سبعة فصول، ليسهل تدربه في أسبوع، أو رمضان

١- روضة المحبين ١٧١

أو دورة إيمانية، مع ملاحظة أن معانيه ومقاصده رغم قلة صفحاته أخص من الوعظ الشائع، والمختصرات والمقاطع. كما أتناولها بالشرح في حلقات تلفزيونية بقناة الرحمة الفضائية، وترفع على قناتي في يوتيوب، وصوتيًّا على تليجرام.

فاللهم افتح بخير واختم بخير، واجعل الكلام عونًا لنا على السير، واغفر زللهُ واجبر خلله، واكتب له القبول عندك وعند من تحب.

وكتبه حامدًا الله ومصليًا ومسلمًا على الحبيب رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

محب المحبين

عمرو بن أحمد

ستره الله وأرضاه وغفر له ولمن أحبه في الله

فصول الكتاب

- سماء النجاة.
- سماء الفرار.
- سماء السماع.
- سماء الخشية.
- سماء الرجاء.
- سماء الإخلاص.
- سماء الحب.

1
سماء
النجاة

ما النجاة؟! ما النجاة؟!

إن ربك يعلم أن هذه الحياة مملوءة بالغموم، وأن الغموم ظلمات تعمي ضحاياها عن المخرج من جاثومها.

وإن ربك يعلم بغمك، فقص عليك غمة يونس عليه السلام، وكيف أنجاه بنداءات بددت الظلمات فقال سبحانه:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾. (١)

وأكرم ما في هذا الذكر المغيث أنه مرصع بكلمة التوحيد، لتعلم أن الغم ما أتاك إلا ليدلك على باب الله.

وإنه لجوهر يا عبد الله - لو اقتنيته - أغلى من زوال الغم نفسه؛ لأنك ستعلم أن الغموم زوالة وأن البعد عن الله إن دام فهو الغم الأظلم والوجع الآلم.

١- الأنبياء: ٨٨

فـردد بلسـانك ﴿لَّآ إِلَٰـهَ إِلَّآ أَنـتَ سُـبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنـتُ مِـنَ ٱلظَّٰلِمِـينَ﴾، واجعـل قلبـك يترجمهـا، ويرددهـا:

اللهم لا فقد إلا فقدك.. ولا وجد[1] إلا وجدك

قـال رسـول الله ﷺ: «**دَعْـوَةُ ذِي النُّـونِ إِذْ هُـوَ فِـي بَطْـنِ الْحُـوتِ: (لَا إِلَـهَ إِلا أَنْـتَ سُـبْحَانَكَ إِنِّـي كُنْـتُ مِـنَ الظَّالِمِيـنَ) فَإِنَّـهُ لَـمْ يَـدْعُ بِهَـا مُسْـلِمٌ رَبَّـهُ فِـي شَـيْءٍ قَـطُّ إِلا اسْـتَجَابَ لَـهُ**».[2]

لكـن لهـذا الذكـر مـردود غيـر مجـرد تفريـج الكـرب، وأثـر غيـر اسـتجابة الدعـاء!

وهـو موضوعنـا ومبحثنـا، وذلـك مـا يرويه الإمـام أحمد في مسـنده مـن حديـث سـعد رضي الله عنه قـال: «مَـرَرْتُ بِعُثْمَانَ بْـنِ عَفَّانَ فِي الْمَسْـجِدِ فَسَـلَّمْتُ عَلَيْـهِ، فَمَـلأَ عَيْنَيْـهِ مِنِّـي ثُمَّ لَـمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّـلامَ!

فَأَتَيْـتُ أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِيـنَ عُمَـرَ بْـنَ الْخَطَّـابِ رضي الله عنه، فَقُلْـتُ: يَـا أَمِيـرَ الْمُؤْمِنِيـنَ، هَـلْ حَـدَثَ فِي الْإِسْـلامِ شَـيْءٌ؟ هَـلْ حَدَثَ فِي الْإِسْـلامِ شَيْء؟!

١- المقصود بالوجد هو اللفظ العربي ليس إلا؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، خلافا لمصطلح الشطحات وخرافة وحدة الوجود؛ قال الله عزوجل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]

٢- مشكاة المصابيح: ١٦٤٤

قَالَ: لَا. وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: قُلْتُ: لَا. إِلا أَنِّي مَرَرْتُ بِعُثْمَانَ آنِفًا فِي الْمَسْجِدِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَمَلأ عَيْنَيْهِ مِنِّي، ثُمَّ لَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ السَّلامَ!

قَالَ: فَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى عُثْمَانَ فَدَعَاهُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تَكُونَ رَدَدْتَ عَلَى أَخِيكَ السَّلامَ؟

قَالَ عُثْمَانُ: مَا فَعَلْتُ!

قَالَ سَعْدٌ: قُلْتُ: بَلَى.

قَالَ: حَتَّى حَلَفَ وَحَلَفْتُ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّ عُثْمَانَ ذَكَرَ، فَقَالَ: بَلَى، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ إِنَّكَ مَرَرْتَ بِي آنِفًا، وَأَنَا أُحَدِّثُ نَفْسِي بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَا وَاللهِ مَا ذَكَرْتُهَا قَطُّ إِلا تَغَشَّى بَصَرِي وَقَلْبِي غِشَاوَةٌ!

قَالَ: قَالَ سَعْدٌ: فَأَنَا أُنْبِئُكَ بِهَا: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَشَغَلَهُ حَتَّى قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَاتَّبَعْتُهُ فَلَمَّا أَشْفَقْتُ أَنْ يَسْبِقَنِي إِلَى مَنْزِلِهِ، ضَرَبْتُ بِقَدَمِي الْأَرْضَ!

فَالْتَفَتَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَقَالَ: «**مَنْ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ؟**»

قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «فَمَهْ».

قَالَ: قُلْتُ: لَا وَاللهِ، إلا أَنَّكَ ذَكَرْتَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ ثُمَّ جَاءَ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ فَشَغَلَكَ.

قَالَ: «**نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ**: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [1] **فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إلا اسْتَجَابَ لَهُ**»[2]

ردد معي قارئي الكريم ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وتأمل حكاية عثمان رضي الله عنه عن حالةٍ حسية جسدية، وروحية وجدانية كان يعيشها بترديد هذا الذكر.

قال: وَاللهِ مَا ذَكَرْتُهَا قَطُّ إلا تَغَشَّى بَصَرِي وَقَلْبِي غِشَاوَةٌ.

أرأيت إلى روحه وهي تترك الدنيا بظلماتها وغمومها، لدرجة أن يملأ عينه من سعد رضي الله عنه ويذهل عن رد السلام!

تلكم والله (النجاة) من الغم التي تفوق تفريج الكرب وقضاء الحوائج.

١- الأنبياء: ٨٧

٢- رواه أحمد وصححه الأرناؤوط المسند:٣٧٩

قارئي القيم..

إن الانشغال بالله وحده طيران فوق المجال المزعج، وأنوار لا ظلمة على من ارتقى متنها وتلبس سطوعها.

إنها ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، أن يحلق القلب في الآخرة فيطير فوق الحياة، فيشرف من أعلى نحو صاحبه وما يعانيه فيرشده ليخرج من الغموم.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كانَتِ الدنيا هَمَّه فَرَّقَ الله عليه أَمْرَهُ، وجَعلَ فَقْرَهُ بيْنَ عَيْنَيْهِ؛ ولمْ يأْتِهِ مِنَ الدنيا إلا ما كُتبَ له، ومَنْ كانَتِ الآخِرَة نيَّتَهُ جمَع الله له أمْرَهُ، وجعَل غِنَاهُ في قلْبِه؛ وأَتَتْهُ الدنيا وهِيَ راغِمَةٌ**». (١)

تأمل الحالين: إنسان تائه، فقره ملتصق في وجهه فلا يرى غيره، حلوله تعقد مشاكله، وإنسان هادئ النفس سديد الاختيار قرير البال.

تلكم حالة البعيد عن الله والقريب منه، كلاهما يمر بامتحانات السراء والضراء، لكن لكل منهما سبيل في الحياة.

١- صحيح الترغيب والترهيب: ٣١٦٨

ما النجاة؟!

قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾ [1]، فإذا كان السوء هو كل ما يسوء النفس، فكيف يبتلى أحباب الله وهو يقول سبحانه أنهم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؟

الجواب: أن نفوسهم لا يصل إليها الألم ولا حتى بأقل الوصول، وهو المس!

لأن السوء في معايير أصحاب الإيمان العالي هو غضب الله والنار والخزي.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يمس المتقين من أذى جهنم شيء، وهو السوء الذي أخبر جل ثناؤه أنه لن يمسهم، ولا هم يحزنون.

يقول: ولا هم يحزنون على ما فاتهم من آراب الدنيا، إذ صاروا إلى كرامة الله ونعيم الجنان. اهـ

١- الزمر: ٦١

فيا لها من نجاة اللهم اكتبها لنا يا نعم المولى ونعم النصير.

عَنْ مَهْدِيِّ بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: رَأَيْتُ حَسَّانَ بْنَ أَبِي سِنَانٍ فِي مَرَضِهِ قِيلَ لَهُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: «بِخَيْرٍ إِنْ نَجَوْتُ مِنَ النَّارِ.

قِيلَ: فَمَا تَشْتَهِي؟

قَالَ: لَيْلَةً بَعِيدَةً مَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، أُحْيِي مَا بَيْنَ طَرَفَيْهَا».

انظر كيف اختفى هم المرض بجوار الاهتمام بقيام الليل والقرب من الله.

ولنتأمل قوله سبحانه ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾.

فالنجاة فوز، عيد وفرحة، توجب الوفاء بقية العمر بهذا المعروف الرباني.

قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأى اليَهُودَ تَصُومُ يَومَ عاشُوراءَ

فَقالَ: ما هذا؟

قالوا: هذا يَوْمٌ صالِحٌ؛ هذا يَوْمٌ نَجّى اللَّهُ بَنِي إسْرائِيلَ مِن عَدُوِّهِمْ، فَصامَهُ مُوسى.

قالَ: **فأنا أحَقُّ بمُوسى مِنكُمْ، فَصامَهُ، وأَمَرَ بصِيامِهِ».**[1]

فيوم النجاة يوم عيد، وفوز وطاعة وتوحيد.

١- البخاري: /٢١٩٠٠

يطلبون النجاة في أحلامهم!

كان من حرص أولياء الله على النجاة، ومن شدة انشغالهم بها في يقظتهم أنهم إذا نام أحدهم ورأى من سبقه بالوفاة أن يسأله عن النجاة، هل نجا؟ كيف نجا؟ بم نجا؟ هل نجا فلان؟ فكانت النجاة حاضرة في مناماتهم!

قال أحد أصحاب إِبْرَاهِيمَ الصَّائِغ رأيته فِي النَّوْمِ، فَقُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ نَجَوْتَ؟

فَقَالَ: بِهَذَا الدُّعَاءِ اللَّهُمَّ عَالِمَ الْخَفِيَّاتِ رفَيْعَ الدَّرَجَاتِ ذَا الْعَرْشِ تُلْقِي الرُّوحَ عَلَى مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَوْبِ شَدِيدَ الْعِقَابِ».

وقال أبو بَكْرِ بْنَ أَبِي مَرْيَمَ: «رَأَيْتُ وَفَاءَ بْنَ بِشْرٍ الْحَضْرَمِيَّ فِي الْمَنَامِ فَقُلْتُ لَهُ: مَا فَعَلْتَ يَا وَفَاءُ؟

قَالَ: نَجَوْتُ بَعْدَ كُلِّ جَهْدٍ.

قُلْتُ: فَأَيَّ الْأَعْمَالِ وَجَدْتُمُوهَا أَفْضَلَ؟

قَالَ: الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ الله».

وقال كَثِيرٌ: «رَأَيْتُ فِيَ مَنَامِي كَأَنِّي دَخَلْتُ دَرَجَةً عُلْيَا مِنَ الْجَنَّةِ فَجَعَلْتُ أَطُوفُ بِهَا وَأَتَعَجَّبُ، فَإِذَا أَنَا بِنَسَيَاتٍ مِنْ نِسَاءِ الْمَسْجِدِ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا، فَذَهَبْتُ حَتَّى سَلَّمْتُ عَلَيْهِنَّ ثُمَّ قُلْتُ: بِمَ بَلَغْتُنْ هَذِهِ الدَّرَجَةَ؟ قُلْنَ: بِسَجَدَاتٍ وَكِسْرَاتٍ».

كسرات: يعني صدقات بسيطة من قطع الخبز.

وقال إِيَاسُ بْنُ دَغْفَلٍ: «رَأَيْتُ أَبَا الْعَلَاءِ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الله فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْعَلَاءِ كَيْفَ وَجَدْتَ طَعْمَ الْمَوْتِ؟

قَالَ: وَجَدْتُهُ مُرًّا كَرِيهًا.

قُلْتُ: فَمَاذَا صِرْتَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟

قَالَ: صِرْتُ إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ.

قَالَ: قُلْتُ: فَأَخُوكَ مُطَرِّفٌ؟

قَالَ: فَازَنِي بِيَقِينِهِ».

قال سَهْلُ بْنُ أَحْمَدَ التَّيْمِيُّ - وَكَانَ لأبيه مولى اسمه (مُجَمِّعٌ) -: «رَأَيْتُ مُجَمِّعًا فِيمَا يَرَى النَّائِمُ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ كَيْفَ الْأَمْرُ؟

قَالَ: رَأَيْتُ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا ذَهَبُوا بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ: قُلْتُ: فَمَا فَعَلَ أَبُوكَ صَمْغَانُ؟

قَالَ: جُمِعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَغَمَّدَنَا بِرَحْمَتِهِ».

عَنْ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ أَبِي مَرْيَمَ، قَالَ: «رَأَى رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يُقَالُ لَهُ: لَتَمْشِيَنَّ فِي جِنَانِ الْفِرْدَوْسِ غَيْرَ مُلِيمٍ.

قَالَ: بِمَ؟

قِيلَ: بِإِكْرَامِكَ الْيَتِيمَ وَإِعْرَاضِكَ عَنِ اللَّئِيمِ.

قَالَ: فَمَتَى ذَلِكَ؟

قِيلَ: تَسْقِي إِبِلَكَ غَدًا بِالْكَرْعِ، فَظَعَنَ فَإِذَا هُوَ سَائِلٌ فَأَكْرَعَ مِنْهُ إِبِلَهُ».

قال مُوسَى بْنُ حَمَّادٍ: «رَأَيْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فِي الْمَنَامِ فِي الْجَنَّةِ يَطِيرُ مِنْ نَخْلَةٍ إِلَى نَخْلَةٍ وَمِنْ شَجَرَةٍ إِلَى شَجَرَةٍ.

فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ بِمَ نِلْتَ هَذَا؟

قَالَ: بِالْوَرَعِ، بِالْوَرَعِ.

قُلْتُ: فَمَا بَالُ عَلِيِّ بْنِ عَاصِمٍ؟

قَالَ: ذَاكَ لَا نَكَادُ نَرَاهُ إِلَّا كَمَا يُرَى الْكَوْكَبُ».

قَالَ عُمَرُ بْنُ صَالِحٍ السَّعْدِيُّ: «رَأَيْتُ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ سُلَيْمَانَ الْعَابِدَ فِي مَنَامِي وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ خُضْرٌ، وَعَلَى رَأْسِهِ إِكْلِيلٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ كَيْفَ كُنْتَ بَعْدِي؟ وَكَيْفَ وَجَدْتَ طَعْمَ الْمَوْتِ؟ وَكَيْفَ رَأَيْتَ الْأَمْرَ هُنَاكَ؟

قَالَ: أَمَّا الْمَوْتُ فَلَا تَسْأَلْ عَنْ شِدَّةِ كَرْبِهِ وَغُمُومِهِ، إِلَّا أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَارَتْ مِنَّا كُلَّ عَيْبٍ وَمَا تَلَقَّانَا إِلَّا بِفَضْلِهِ».[1]

١- المنامات لابن أبي الدنيا

النجاة مرهونة بالتطهر من الذنوب!

وإذا كانت كربات الدنيا التي تحيط بالمرء على قدر ذنوبه كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[1]، فالنجاة منها إذن مرهونة بالنجاة من الذنوب.

عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: «أُتِيَ زِيَادٌ بِرَجُلٍ فَأَمَرَ بِهِ لِيُقْتَلَ، فَلَمَّا أَحَسَّ الرَّجُلُ بِالْمَوْتِ قَالَ: ائْذَنُوا لِي أَتَوَضَّأُ وَأُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ فَأَمُوتُ عَلَى تَوْبَةٍ لَعَلِّي أَنْجُو مِنْ عَذَابِ الله.

قَالَ زِيَادٌ: مَا يَقُولُ؟

قَالُوا: يَقُولُ كَذَا وَكَذَا.

قَالَ: دَعُوهُ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ مَا بَدَا لَهُ.

قَالَ: فَتَوَضَّأَ، وَصَلَّى كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ. فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ أُتِيَ بِهِ لِيُقْتَلَ

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ: هَلِ اسْتَقْبَلْتَ التَّوْبَةَ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. فَخَلَّى سَبِيلَهُ».

١- الشورى: ٣٠

كل قلب ذاق النجاة

سبحانك! تنجي من لجأ إليك وحدك وتغيثه وحدك ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [1] إنه سبحانه كرر النجاة في هذا السياق كفعل من أفعاله في حياة كل إنسان، حتى صارت (النجاة) من طبيعة تعريف نفسه سبحانه لخلقه، وتحببه إليهم وعونه لهم على إقامة توحيده.

فكل مخلوق جرب النجاة، وعرف بها الله، فآمن من هداه الله، وجحد الشقيُّ مولاه ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [2]

١- الأنعام: ٦٤

٢ - الإسراء: ٦٧

يا أيها الناجي!

والله ما أنجاك ربك إلا لتوحده سبحانه؛ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (١)

فساعات الكرب والضيق هي الساعات التي تدلك على الطريق ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾، حين حار عقلك في التماس الحلول، ذقت حينها اليقين والوصول، وعرفت أن لك ربا لن يضيعك ولن يخزيك، وهو الأحق ألا تبرح باب عبوديته وألا تشرك به أحدا في ألوهيته.

١- النمل: ٦٢

وفي كل مرة ربك ينجيك
والشيطان ينسيك!

أكثر سؤال يؤلمني حين يقول لي أحد الأحباب: لماذا لم يستجب الله لي ولا دعوة ؟ أنا لم يستجب الله لي أي دعوة في حياتي!

إنني لا أجيب على هذا السؤال بفقط بأن أقول: تخلص من موانع القبول كأكل الحرام مثلًا، واحرص على أسباب القبول كالصلاة على النبي ﷺ أول الدعاء وآخره مثلًا.

بل أقول: لا والله - حبيبي في الله – كم استجاب الله لك، أقسمْ لك بالله أن الله تقبل دعاءك، وفرج كربك وحقق أملك أكثر من مرة لكنك تنسى؛ تأمل كيف ختمت الآية السابقة: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

إنه سبحانه يخبر أنه يجيب المضطرين، لكنهم بعد الاضطرار ينسون وقليلا ما يتذكرون.

ولاحظ أنه سبحانه يخاطب بهذا الحديث من لا يؤمن أصلًا، بمعنى أنهم غير مخاطبين بأسباب القبول وموانع القبول، ومع ذلك فالاضطرار يفتح أبواب السماء لأنها معاملة مع الله تعالى تبرهن على وحدانيته سبحانه.

والآن اقرأ الآية مرة أخرى وتأمل هذه الأربعة:

الاضطرار الإجابة التوحيد النسيان.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾. (١)

ثم إن ربك أكرم الأكرمين أعطاك ما سألت، وخيرًا مما سألت، وما لم تسأل!

وما لم تراه بعينك، فلعله مذخور لك بأفضل منه؛ قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو لَيْسَ بِإِثْمٍ وَلَا بِقَطِيعَةِ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السوء مثلها**»، قال: إذا يكثر؟ قال: «**الله أكثر**». (٢)

١- النمل: ٦٢

٢- صحيح الأدب المفرد ٧١٠

رسول النجاة ﷺ

لقد لخص رسول الله ﷺ رسالته في أنها النجاة فقال: «مَثَلِي ومَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أتى قَوْمًا فقالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بعَيْنَيَّ، وإنِّي أنا النَّذِيرُ العُرْيانُ، فالنَّجا النَّجاءَ، فأطاعَتْهُ طائِفَةٌ فأدْلَجُوا على مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وكَذَّبَتْهُ طائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فاجْتاحَهُمْ».

فلو جمعت كل أمر ونهي نبوي في كلمة واحدة فإنها ستكون: (النجاة) وإن اتباعه ﷺ هو حيازة الحسنات ومغفرة السيئات وهذه هي النجاة الحقيقية فاتبعها.

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا. فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا. وَهُوَ بذبهن عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تفلتون من يدي».[1]

والله لا أجد أكرم ولا أشكر على هذين الحديثين من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.[2] ﷺ.

١- صحيح مسلم ٤/ ١٧٩٠

٢- التوبة: ١٢٨

هل ستنجو؟

إن النجاة غاية، يتحمل المرء في سبيلها الاصطبار على الطاعة ويزيد في الاصطبار طلبًا لها، بينما لا يأبه المنافق ويظن أنه طالما ستره الله وسط الخلق أنه بذلك قد نجا.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْمُؤْمِنُ أَحْسَنُ النَّاسِ عَمَلًا، وَأَشَدُّ النَّاسِ خَوْفًا، لَوْ أَنْفَقَ جَبَلًا مِنْ مَالٍ مَا أَمِنَ دُونَ أَنْ يُعَايِنَ .

[يقصد حتى يرى بعينيه نجاته من النار ودخول الجنة].

وَلَا يَزْدَادُ صَلَاحًا وَبِرًّا وَعِبَادَةً إِلَّا ازْدَادَ فَرَقًا، يَقُولُ: وَلَا أَنْجُو، وَالْمُنَافِقُ يَقُولُ: سَوَادُ النَّاسِ كَثِيرٌ وَسَيُغْفَرُ لِي، وَلَا بَأْسَ عَلَيَّ، يَسِيئُ فِي الْعَمَلِ وَيَتَمَنَّى عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نفسه قائمًا بذلك لا يكتفي بالكلام.

فعَنْ حَمْزَةَ الْأَعْمَى، قَالَ: ذَهَبَتْ أُمِّي إِلَى الْحَسَنِ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَعِيدٍ ابْنِي هَذَا قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ يَلْزَمَكَ، فَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَهُ بِكَ، قَالَ: فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لِي يَوْمًا: «يَا بُنَيَّ أَدِمِ الْحُزْنَ عَلَى خَيْرِ الْآخِرَةِ، لَعَلَّهُ أَنْ يُوصِلَكَ إِلَيْهِ، وَابْكِ فِي سَاعَاتِ الْخَلْوَةِ، لَعَلَّ مَوْلَاكَ يَطَّلِعُ عَلَيْكَ فَيَرْحَمَ عَبْرَتَكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ».

قَالَ: وَكُنْتُ أَدْخُلُ عَلَيْهِ مَنْزِلَهُ وَهُوَ يَبْكِي، وَآتِيهِ مَعَ النَّاسِ وَهُوَ يَبْكِي، وَرُبَّمَا جِئْتُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَأَسْمَعُ بُكَاءَهُ وَنَحِيبَهُ. فَقُلْتُ لَهُ يُومًا: يَا أَبَا سَعِيدٍ إِنَّكَ لَتُكْثِرُ مِنَ الْبُكَاءِ.

فَبَكَى! ثُمَّ قَالَ: «يَا بُنَيَّ فَمَا يَصْنَعُ الْمُؤْمِنُ إِذَا لَمْ يَبْكِ؟ يَا بُنَيَّ إِنَّ الْبُكَاءَ دَاعٍ إِلَى الرَّحْمَةِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَكُونَ عُمْرَكَ إِلَّا بَاكِيًا فَافْعَلْ، لَعَلَّهُ يَرَاكَ عَلَى حَالَةٍ، فَيَرْحَمَكَ بِهَا، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ نَجَوْتَ مِنَ النَّارِ».

والداعية هو قبطان النجاة

قال الذي لا ينجي إلا هو سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.[1]

فالنجاة هي مركب العاملين لخدمة الدين، والساعين لهداية الناس أجمعين، حتى إذا جحدوهم وآذوهم، وانتهت مهلتهم وأهدروا فرصة الخير من أيديهم.

حان ركوبها والرحيل إلى الأمان والعافية، وحان نزول عقوبة الحكم العدل - نعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته - فينحسر ذوو الكيد في كيدهم يتيهون، وفي أوهام استئصال الدعاة يتهافتون.

بينما نجا أولياء الله من كل مكر، وبدأت استراحتهم وقضي الأمر، ليتكئوا في براح النجاة، فإنه لا يضيع من تولاه الله، وهانت سنوات التكذيب وتكاثرت السوانح والعبر، واستقرت

١- الأعراف: ٦٤

اللطائف الإلهية وعجائب قهر القدر؛ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾. (١)

١- يوسف: ١١٠

والنجاة لا تحابي!

لا ينجو إلا المستحقون والذين أدركتهم الرحمة بأمر الله، فلا محاباة ولا حتى للناجين أنفسهم! ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (١).

فتفصل النجاة وتعز مستحقها، ويجلو تأويل صدقه وقتها، ويهلك مكذبوه غير مأسوفين ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.(٢)

يا ويلها من امرأة! كم سمعت مواعظه فكذبتها؟!

وخانت دعوته وخذلتها!

فلما جاءت النجاة ما نفعتها الأسباب وخسرت كما يخسر المبطلون، ولا دعاءه المستجاب ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

١- البقرة: ١٢٤

٢- الأعراف: ٨٣

والنجاة عرفان يرسخ في الفؤاد فيثبته، ويعرِّف القلب بمولاه فيوحده، ويديم ذاكرة هزيمة العدو فتهون قوته، وتدوم كسرته، فالذي يُنجي قد فاض بغوثه وحنانه، وقلبُ الناجي يناجي قبل لسانه: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾. (١)

ولا والله ليس تكراري ولكنه تكرار الآيات والنذر، التي تضع الدعاة وأمثالهم في بقعة الأمان من كل خطر.

قال خفي الألطاف في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (٢).

وقال وهو أصدق القائلين ولا نجاة إلا نجاته من كل خطر مبين: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾. (٣)

١- [الأعراف ٨٩]
٢- الأنعام: ٤٤
٣- يونس: ١٠٣

ومن عرف طريق النجاة ولزمه، لازمته النجاة في الدنيا والآخرة: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[1]، حيث تصير التقوى ملازمة لقلوبهم والتي هي نفسها النجاة في كل فتنة في الدنيا.

فحالت التقوى بين الناجي وبين كل ذنب وعطَب، وشدت عزيمته في الطاعات والقرَب، ثم حملته مركب النجاة في دار الكُرَب، وأدخلته دار الفلاح وجنبته دار التعب، لا نُهلك أولياءنا بل أعداء الله يهلكون ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾. [2]

أما المجرمون فلا ننجيهم هنا لأنهم كانوا بعد كل نجاة يتنكرون، وكانوا كلما ﴿رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾. [3]

فالنجاة من الله تأتي لكننا نحن من نَألفها، بدوام المجاهدة بكل شيء حتى تدوم في الدارين بركتها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ

١- مريم: ٧٢

٢- النمل: ٥٣

٣- العنكبوت: ٦٥

أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.[1]

١- الصف: ١٠-١٣

عُمَر يخاف فوات النجاة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَالٌ، فَنَشَجَ حَتَّى اخْتَلَفَتْ أَضْلَاعُهُ؛ ثُمَّ قَالَ: «وَدِدْتُ أَنِّي أَنْجُو مِنْهُ كَفَافًا لَا لِي، وَلَا عَلَيَّ»، انظر كيف خاف من المال كأنه ثعبان بين يديه، وكيف رأى النجاة أحب إليه، لأنه إذا سرت رغبة النجاة في وجدان المرء حرسته من كل شهوة مهما اشتدت.

روى سُلَيْمَان بْن يَسَارٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ أيضًا: «لَوَدِدْتُ أَنِّي أَنْجُو مِنَ الْإِمَارَةِ كَفَافًا، لَا لِي، وَلَا عَلَيَّ»، نفس الكلمة قالها مرة عن المال ومرة عن الملك، يرى كل ذلك مهددًا للنجاة!

إنه عكس الذين ضلوا النجاة فظنوا المال هو النجاة، والترف هو النجاة، فخسروا دينهم وخسروا الحياة.

قال رسول الله ﷺ: **«لا تقومُ الساعة حتى يَحْسِرَ الفرات عن جبل من ذهب يَقْتَتِل الناسُ عليه، فيُقتلُ من كلّ مائة تسعة**

وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلّي أكونُ أنا الذي أنجو».[1]

فنجاتهم غرور مهلك فتان، وشتان بينهم وبين أهل الحب شتان.

ومن خاف الله سعى للآخرة متواضعًا رفيقًا، لا يزكي نفسه ولا يراها أهلًا للجنة كما كَانَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «مَا سَأَلْتُ اللهَ الْجَنَّةَ إِلَّا وَأَنَا مُسْتَحِي مِنْهُ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أَنْجُو مِنَ النَّارِ، وَأَصِيرُ رَمَادًا».

يعني يحسد الدواب التي يقال لها يوم القيامة كونوا ترابًا، فيرى نفسه أحقر من أن يدخل الجنة فغاية تزكيته لنفسه أن يعفى من جهنم ولو صار بعد ذلك رمادًا!

بل قد أخبرنا رسول الله ﷺ بخبر رجل «أَمَرَ أَهْلَهُ إِذَا مَاتَ أَنْ يُحَرِّقُوهُ، ثُمَّ يَطْحَنُوهُ، ثُمَّ يُذَرُّوهُ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَجُمِعَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ لَمْ يَكُنْ عَبْدٌ أَعْصَى لَكَ مِنِّي، فَرَجَوْتُ أَنْ أَنْجُوَ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي. فَغُفِرَ لَهُ ».[2]

١- مسلم ٢٨٩٤

٢- رواه أحمد وصححه الأرناؤوط ١٧٠٦٤

انظر إلى هضم النفس والخوف من الله كيف أنجى صاحبه!

وقال أبو بَكْرِ بْنَ أَبِي مَرْيَمَ: «رَأَيْتُ وَفَاءَ بْنَ بِشْرٍ الْحَضْرَمِيَّ فِي الْمَنَامِ

فَقُلْتُ لَهُ: مَا فَعَلْتَ يَا وَفَاءُ؟

قَالَ: نَجَوْتُ بَعْدَ كُلِّ جَهْدٍ.

قُلْتُ: فَأَيَّ الْأَعْمَالِ وَجَدْتُمُوهَا أَفْضَلَ؟

قَالَ: الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ الله».

فلا أنجى للمرء من الإشفاق والرقة وغياب رؤية النفس، ودوام الدموع اتقاء عذاب الله.

قَالَ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: قَالَ لِي عَلِيٌّ ابْنِي: «سَلْ لِي رَبِّكَ طُولَ الْحُزْنِ، فَلَعَلِّي أَنْ أَنْجُوَ بِطُولِ الْحُزْنِ غَدًا».

الحبيب ﷺ يجيب السائلين عن النجاة

وملحة هذا الفصل وخاتمته: في الخطة التي أجاب بها رسول الله ﷺ من سأله عن النجاة.

قال عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ: ما نجاةُ المؤمنِ؟

قال: «**احفظْ لسانَك ولْيسعْكَ بيتُك وابكِ على خطيئتِك**».[1]

وإنها لنصيحة نبوية منجية؛ العامل بها يحفظ لسانه مما يكره الله عزوجل، ويؤثر الخلوة بربه في البيت على مخالطة الخلق لغير حاجة لا سيما في فتن الهرج والمرج، وتجري دمعته على ما قصر في رضا الله تبارك وتعالى.

وقال ﷺ: «**من حافظ على الصلاةِ كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ القيامةِ ومن لم يحافظْ عليها لم يكنْ له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاةٌ وحُشِرَ يومَ القيامةِ مع فرعونَ وهامانَ وقارونَ وأبيِّ بنِ خلفٍ**».[2]

١- السلسلة الصحيحة ١١٢٢

٢- صحيح مشكاة المصابيح ٥٧٨

فالنجاة كلها في الصلاة، فبادر للقاء محبوبك كل صلاة.

- وقال ﷺ: «**نَجا أولُ هذه الأُمَّةِ بِاليَقِينِ والزُّهْدِ، ويَهْلِكُ آخِرُ هذه الأُمَّةِ بِالبُخْلِ والأَمَلِ**».[1]

فشدد يقينك وازهد في سوى الله تنجو.

١- السلسلة الصحيحة: ٣٤٢٧

2
سماء
الفرار

كل إنسان له عالمه، عالم مليء بالمشاغل والطموحات والمخوفات والمحفزات، وأنت لست جوهر عالم آخر غير عالمك بل أنت مجرد مرور في أي عالم سواك؛ تأمل رويدًا، ستجدك ضحية الجميع حتى أحبابك، الجميع تعطيهم من عمرك وروحك، جميعهم شركاء في احتلال الاهتمام والانشغال، فأين أنت؟! مَن الذي يعاملك لأجلك؟!

النفس تؤثر الراحة والكسل لها لا لك! حتى الصحة كم غدرت فصعبت طاعة وأدامت بطالة!

حتى العين كم بخلت بدمعة طلبها صاحبها حين رأى الكعبة أو قرأ آية، بينما فضحته بالدموع وهو يشاهد أحد المقاطع!

ضاقت قصعة القلب بكل هؤلاء الأكلة، من داخلك وخارجك فإلى أين تذهب إن كان هروبك من الجميع ؟!

إنه الفرار

قال الذي تألهه القلوب حبًا سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[1]، ما أوفاه من محبوب! وما أقدره من مغيث! وما أصدقه من جبار سبحانه!

لكن كيف أفر إليه؟!

☜ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: فِرُّوا مِنْهُ إِلَيْهِ.

يشرح رضي الله عنه الآية بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فنهرب مما يغضبه باللجوء له أن يحولنا عن معاصيه ويعصمنا ويتوب علينا منها فلا نقترفها، ونهرب إلى طاعته باللجوء إلى قوته أن يعيننا عليها ويشرح صدورنا لها ويثبتنا عليها ويتقبلها منا.

☜ قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ الله: **فِرُّوا مِمَّا سِوَى الله إِلَى الله!**

وهذا عين ما أشعر بالاحتياج إليه؛ وجدت فيه دقيقة داوت جزءًا من حيرتي ولوعتي، فالشأن أوسع من الحسنات

١- الذاريات: ٥٠

والسيئات، إنني أريد أن أريد الله ولا أريد سواه، أطمع في التخلص من إرادة سواه ولو نفسي، لا أثق إلا في إرادته ورحمته وحكمته وقدرته ومعيته سبحانه وبحمده.

حسنًا، ها هو طريق الهروب يتضح أمامي، ولكن..

ما السبيل إلى الفرار؟

أخا الفرار!

قرر أن تجعل كل موقف خذلان تمر به فرصة لتعرف أكثر عن علاقتك بالله سبحانه، وقر عينًا بكماله مقابل نقص خلقه، وجوده مقابل شح خلقه، وقدرته مقابل عجزهم، وعفوه وبره وجبره وقوته إلى آخر ما يمليه عليك الموقف الذي آلمك وأرهقك، لتستريح من جهتين:

- الإشفاق على من خذلك فلا تبادله مكرًا بمكر ولا أذى بأذى، ولكن تسلم الأمر لله وتجعل حظك الأول الحسنات، ثم إن شئت أخذ حقك بسلامة صدر بلا غيظ ولا قهر ولا حيف.
- ثم التزلف إلى ربك الذي وليته أمرك (وفررت إليه) فتحبه وتشدد حبك ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1] وتحب معاملته والربح منه لا شريك له.

١- البقرة: ١٦٥

أكثر آية تجبر خاطري

إن أكثر آية تجبر خاطري هي قوله سبحانه من حنان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.[1]

كل أولياء حياتك سواه لا يجوز إلحاق الألف واللام بولايتهم؛ هو وحده (ال) ولي، أما سواه فولي أمرك، ولي عملك، إلخ فولايته كاملة تامة في كل شيء لأنه يقدر على كل شيء ويملك كل شيء ويدبر كل شيء.

ثم هو وحده (ال) حميد في ولايته، فأي ولي سواه يحمد على شيء يقدمه لك ثم لا يحمد على شيء سواء لبخله أو لعجزه.

فمثال البخل أنك قد تصادف زميلًا في العمل رفيقًا ناصحًا لكنه يضن بالمساعدة إذا رآك تساويه أو تتفوق عليه، ومثال العجز أن أباك يحمد على حنانه وعطائه، لكنه يموت فينقطع عمله إلا ما شاء الله فهذا لا يحمد فيه.

١- الشورى: ٢٨

أما رب العزة والجلال فهو (ال) حميد سبحانه، فكل محمدة تليق به فكاملة تامة أزلية باقية، فطب نفسًا بولايته فإنه الولي الحميد، وقر عينًا بمناجاته فإنه الولي الحميد، وثق في كل أوصافه فإنه الولي الحميد، وفر من سواه إليه فإنه (وحده) الولي الحميد.

هل عرفت العلم الذي أقصده؟ إنه العلم بالآيات المرئية قبل المسموعة، أقصد آيات الحياة ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾[1].

افهم هذه الآية كأنها تقول: سنريهم آياتنا في عجزهم وشحهم وخزيهم وضعفهم حتى يفروا إلى ربهم لأنه الحق وحده سبحانه. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2] فيفروا إليه وحده.

إنها مدرسة المواقف التي هي أكبر تدريب وتلقين؛ شعار المرء فيها (عرفت فالزم)، وديدنه قول النبي ﷺ: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**»[3]، هذا كله من آيات الله المرئية في خلقه.

١- فصلت: ٥٣

٢- فصلت : ٥٣

٣- البخاري /٥٥٧٨٢

ثم العلم بأسماء الله وصفاته من آياته المسموعة في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فإنه «**من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين**».[1]

ما هو أول اسم عرفه رسول الله ﷺ من الاسماء الحسنى؟

تأمل أن اسم الله «الأكرم» هو أول اسم من أسماء الله الحسنى تعلمه رسول الله ﷺ مع أول دفعة من الوحي الكريم وبعد غطة الملك الأمين جبريل عليه السلام ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾[2]، فأول ما أنزل الله من الوحي يربي به رسوله ﷺ الإيمان بأنه أكرم الأكرمين وأن كل عافية في الأقدار إنما هي طرف من سعة كرمه وبره.

وهكذا كلما تعلمت وجدت نفسك تتحرك نحو الهروب والفرار من جميع ما هو سوى الله تعالى حتى من نفسك، وحينها تنجو!

١- رواه أحمد وصححه الأرناؤوط ٢٧٩٠

٢- العلق: ١-٣

الفرار الأصعب

وها هنا مستوى رفيع للفرار، أخص من أن تهرب من نفسك، وهو الفرار من حسناتك وطاعاتك!

بمعنى ترك العجب والغرور ورؤية العمل والإدلال والمن على المنان جل جلاله، وكل ذلك أكبر مِنَ الْكَبَائِرِ الظَّاهِرَةِ مِنَ الزِّنَا، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ وَنَحْوِهَا.وهي من رَعُونَاتِ النَّفْسِ وَحَمَاقَتِهَا.

وما أدل تشريع الاستغفار عقب الطاعات على ذلك، حتى يأمر سبحانه المغفور لهم للتو في عرفه قائلًا: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾[1]

ويمدح المتهجدين قائلًا: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[2] قَالَ الْحَسَنُ: مَدُّوا الصَّلَاةَ إِلَى السَّحَرِ، ثُمَّ جَلَسُوا يَسْتَغْفِرُونَ الله

١- البقرة: ١٩٨ - ١٩٩

٢- آل عمران: ١٧

عَزَّ وَجَلَّ، وأخشع المصلين وأعظم المصلين ﷺ «كَانَ إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا.

وكان يقول بعد الوضوء «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[1]، «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ». [2]

وهذا أنزه فرار وأحبه إلى الله تعالى؛ أن تظل مفتقرًا إليه تطلب بعد الحسنة حسنة، وبعد الحسنات حسنة، وبعد القناطير حسنة!

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. [3]

قال بعض السلف: فمَتَى رَضِيتَ نَفْسَكَ وَعَمَلَكَ لِلَّهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ بِهِ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّ نَفْسَهُ مَأْوَى كُلِّ عَيْبٍ وَشَرٍّ، وَعَمَلَهُ عُرْضَةٌ لِكُلِّ آفَةٍ وَنَقْصٍ، كَيْفَ يَرْضَى لِلَّهِ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ؟

بل يفر منه وينساه ويطمع في الأفضل.

وكُلَّمَا عَظُمَ الله فِي قَلْبِكَ، صَغُرَتْ نَفْسُكَ عِنْدَكَ وصغر عملك في عينك ورأيته لا يليق بملك الملوك جل جلاله.

فاللهم إنا نوينا حبك، فارزقنا حقيقة الفرار إليك، نحن بك وإليك.

١- الحاكم وصححه الألباني في التعليق على حديث ٦٨ من السلسلة الصحيحة

٢- مسلم

٣- البقرة: ٢٠١

3
سماء
الاستجابة

السمع نعمة!

سد أذنيك؛ تعرف نعمة الله عليك، قال الله جل جلاله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.[1]

تخيل أنك تجلس في المسجد في يوم الجمعة وترى الخطيب يلوح ويشير بيديه وينفعل ويعرق ويبكي الناس، وأنت لا تسمع من كلماته شيئًا!

فإذا قام الناس قمت، وإذا ركع الناس ركعت، وإذا سجدوا سجدت، وإذا سلموا سلمت! تخيل أنك لم تسمع يومًا: «قال الله»، ولم تسمع يومًا: «قال رسول الله» ﷺ، ولم تسمع يومًا: «**الله أكبر**»!

تخيل الدنيا من غير الأذان!، تخيل الدنيا من غير القرآن!، الدنيا من غير سماع الفاتحة والبقرة وآل عمران!

تخيل الدنيا من غير أن تسمع شيئًا! الدنيا بلا أصوات! ولا صوت نفسك!

١- المؤمنون: ٧٨

شيء لا يصدق. صم، ولكن كأنهم يسمعون!

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كان ثابت بن قيس خطيب الأنصار فلما نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [1] إلى آخر الآية جلس ثابت في بيته واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: «**ما شأن ثابت أيشتكي؟**» فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت: أنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ فأنا من أهل النار.

فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ. فقال رسول الله ﷺ «**بل هو من أهل الجنة**». [2]

رضي الله عن ثابت؛ كان أصمًا، كان لا يسمع جيدًا، لكنه يشعر، كان ضعيف حاسة السمع، لكنه كان ذا إحساس، ومثله

١- الحجرات: ٢

٢- مسلم: ١١٩

في الدنيا كثير من الصم كانوا من العظماء.

- كمحمد بن سيرين رحمه الله، ذاك العابد الزاهد العالم الراسخ الذي احتشدت كتب التراجم بفضائله كان أصمًا!! فمن أين أتى بعلمه وخشيته وزهده وتلك السيرة العالية وهو أصم لا يسمع، أو كما يروى به صمم أي ضعيف السمع جدًا؟
- والإمام قالون (صاحب الرواية عن نافع) هو عيسى بن مينا المصري، رضي الله عنه ورحمه كان أصمًا لا يسمع!! والأمة إلى اليوم ترتل القرآن بالسند إلى قالون وهو لم يكن يسمع!

كان تلاميذه يجلسون بين يديه، يصحح لهم القرآن من نظره إلى فم المتكلم، وقيل كان يسمع القرآن فقط! المهم ألا يقوم تلميذه من بين يديه حتى تصح قراءته كما قرأ رسول الله ﷺ!

فأي إحساس هذا؟

- الأستاذ الكبير محمد صادق الرافعي رحمه الله، الذي أخذ بألباب عشاق اللغة والأدب، وأثرى المكتبة العربية بكتاباته القيمة، كان أصمًا لا يسمع!

وهكذا في الدنيا كثيرون، لا يسمعون، لكنهم كانوا يشعرون، يحسون، يبدعون، يتعبدون، يعملون بما يعلمون.أتدري ما سر هذه الوقفة المبهرة وهذه الأمثلة المذهلة؟

أن يكون الهروب الذي نويناه والنجاة التي طلبناها إلى خير متكلم سبحانه وإلى خير مبلِّغ ﷺ.

هؤلاء الذين لم يفروا فتخطفتهم كل شهوة وتخويف واهتمامات:

يسمعون، ولكن لا يشعرون ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.[1]

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.[2]

يسمعون، لكنهم لا يفقهون ولا يطيعون ولا يخشعون ولا يعظمون، فسلب الله منهم وصف السمع، وسماهم صمًّا!

أتدري ما أكثر كلمة سمعتها في دهرك؟

إنها اسم الله جل جلاله؟

١- الفرقان: ٤٤

٢- الأحقاف: ٢٦

أتدري ما أكثر أمر وجه إليك في دهرك؟ إنه

«حي على الصلاة حي على الفلاح».

أتدري ما أكثر نصيحة وجهت إليك في دهرك؟

إنه الأمر بتقوى الله.

أتدري ما أكثر كلمة قلتها في حياتك «الله أكبر».

إنك في كل سنة من عمرك حضرت خمسين خطبة مغتسلًا متطيبًا رافعًا بصرك نحو الواعظ، مهملًا هاتفك، منفصلًا عن بيتك وعملك، قد فرغت من كل شيء حتى العبث بأصابعك، لتسمع أوامر ونواهي (الله) عَزَّوَجَلَّ، فأين أثر ذلك؟

تأمل هذا النداء الإلهي لتقدر خطورة أن تكون أصمًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾.[1]

١- الأنفال: ٢٠-٢٤

في زمن (قروية العالم) حيث تجمع الدنيا كلها في شاشة قامت حجة الله عليك!

صار الوصول للكتب والفتاوى والمشايخ وشروح جميع الكتب بالصوت والصورة أسهل ما يكون، فأين قلبك بعد كل هذا؟

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. (١)

أين التوحيد؟! لا يزال بيننا من يحلف بغير الله، ويصلي بالمساجد المقبورة، ويخاف من غير الله، وينذر ويذبح لغير الله.

وأين الاتباع؟! لا يزال بيننا من يبتدع في أقواله وأفعاله، لا يزال بيننا من يحتفل بالمولد، وينشر الرسائل البدعية.

وأين التزكية؟ أين التقوى؟ أين الصلة والبر؟ أين الرحمة والأدب؟ أين ضوابط الحجاب؟ أين أهل القرآن؟ أين حفظ اللسان؟ أين غض البصر؟ أين إقامة صلاة الجماعة؟ أين اتقاء الربا؟

اللهم رحماك، فاجعل سمعنا حجة لنا لا علينا

١- الحج: ٤٦

إخوتاه، أنذرتكم الصمم!

إن الله شبه الذي لا يستجيب بالأصم، فلا ريب أن هذا يشير إلى تطابق أسباب الصمم الحقيقي مع الصمم المعنوي.

فتعالوا - في خطوة جريئة - ندرس أسباب ضعف السمع الحسي (طبيًا)، لنسقطه على سمعنا لأوامر الله ورسوله ﷺ، تعالوا أضع بين أيديكم صورة توضيحية للأذن، وأنواع ضعف السمع وأسباب كل نوع:

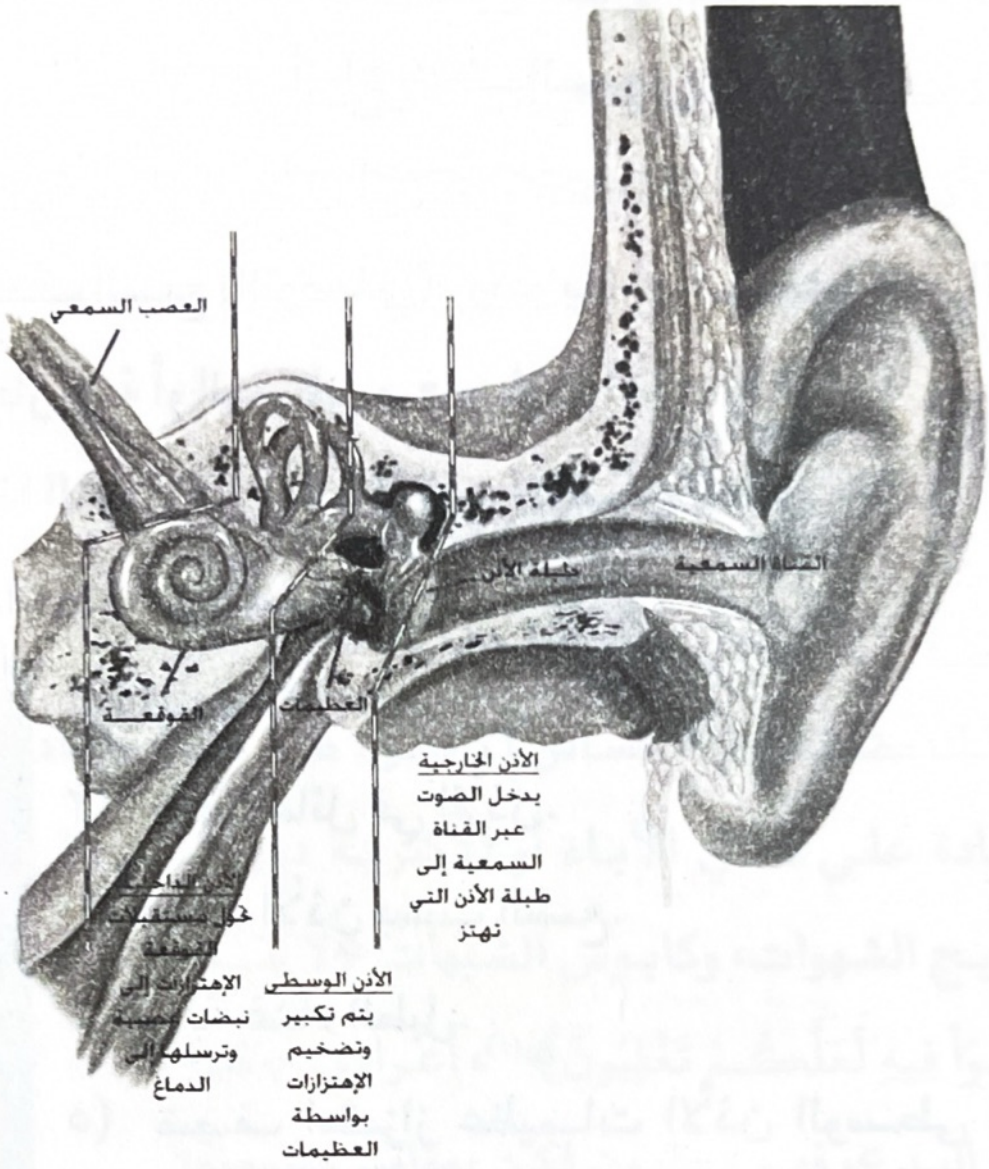

أنواع فقدان السمع:

- حسـي : تتلف مستقبلات القوقعة بالأصوات المزعجة أو بتقدم العمر أو بالالتهابات .
- عصبي : يتلف العصب السمعي والجهاز العصبي بتقدم العمر أو الأورام .
- توصيلي : عدم وص..ول الصوت إلى الأذن الداخلية بسبب الشمع أو تجمع السوائل .

أسباب فقدان السمع:

- تقدم العمر - أدوية - إصابات - إلتهابات - أمراض - وراثة - أصوات شديدة الإزعاج .

أنواع ضعف السمع

أولًا: ضعف السمع (التوصيلي): وهو ينتج عن خلل في الأذن الخارجية أو الوسطى مع سلامة الأذن الداخلية. ويؤدي هذا الخلل إلى مشكلة في «توصيل الصوت» إلى الأذن الداخلية، من أسبابه:

١) التهاب الأذن الوسطى.
٢) تجمع السائل في الأذن.
٣) انسداد الأذن بسبب الشمع.
٤) إصابة غشاء الطبل.
٥) ضعف اهتزاز عظيمات الأذن الوسطى لنمو عظيمات محيطة.

هلم نتدبر إسقاط هذه الأسباب في السمع المعنوي الإيماني وكيف يضعف سمع الإنسان عن أمر الله ونهيه:

- فإن هناك موانع تعيق (توصيل) الحق إلى سمع قلبك: كتجمع أصحاب السوء، أو طاعة أحد في معصية الله، أو غياب

أدب استماع العلم، أو تنفير بعض الناصحين وغلظتهم.

ثانيًا: ضعف السمع (الحسي): والذي ينتج لخلل يصيب أجزاء الأذن الداخلية كالقوقعة والخلايا الشعرية التي بها.

ومن أسبابه:

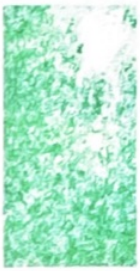

١) تقدم العمر.

٢) الصدمة أو ضجة الصوتية.

٣) أعراض جانبية لبعض العقاقير.

وكذلك مضعفات (الإحساس) بالحق: طول أمد واعتياد الباطل، العبادة على هدي الآباء أو الأكثرية دون تدبر ولا إنصاف، ضجيج الشهوات، وكابوس الشبهات ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1]، أعراض جانبية لأخذ الدين من أهل البدع، فهم مداوون لكن بعقاقير مسمومة!

ثالثًا: ضعف السمع (المركزي): يحدث عند إصابة العصب السابع أو جذع المخ أو المخ نتيجة لتأثر مركز السمع في الدماغ نتيجة الحوادث أو الأمراض، وليس بالضرورة أن يؤثر على مستوى علو الصوت ولكنه يؤثر على مستوى فهم الكلام.

١- فصلت: ٢٦

أرأيت. قد يسمع، ولكن لا يفهم !

هل صدمك هذا التحليل لضعف السمع (المركزي)؟ والذي يقع للحوادث أو الأمراض، يعني هذا النوع الرهيب (المركزي) قد لا يصاب المرء به لحادثة واحدة أو مرض واحد، حتى تتجمع الأسباب فيقع هذا الصمم مرة واحدة.

كذلك الصمم المركزي (صمم الروح)، يحدث بتراكم الذنوب وكثرتها؛ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. (١)

حتى ينزل الختم والعياذ بالله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. (٢)

فيموت القلب والعياذ بالله؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾. (٣)

عن معاوية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن السامع المطيع لا حجة عليه وإن السامع العاصي لا حجة له». (٤)

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ

١- المطففين: ١٤

٢- الجاثية: ٢٣

٣- فاطر: ٢٢

٤- رواه أحمد ١٦٨٧٥ وصححه شعيب الأرناؤوط

وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.[2]

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [في منزلة المحبة]:

فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء ولم يسمعوه بالروح الحقيقي الذي هو روح حاسة السمع التي هي حظ القلب.

فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب ولزال عنهم الصمم والبكم ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة عدم السمع والعقل.

﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.[3]

١- فصلت: ٥

٢- الفرقان: ٤٤

٣- الملك : ١١

وقال سبحانه: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. (١)

ما أغربه من أصم يشبه الصمم الحسي:

عالي الصوت! أناني لا يتأدب بأدب الخلاف، يسمع الغناء، وتسري الشبهات إليه بسلاسة، ويألف اللغو، لكنه أصم عن أمر الله ونهيه ووعظه وهداه!

صم إذا سمعوا خيرًا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

يقول الملك جل جلاله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. (٢)

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد

١- هود: ٢٠-٢٢

٢- لقمان: ٦-٧

ويقول ابن القيم في آثار الذنوب والمعاصي: ومنها [أي آثار الذنوب والمعاصي]: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام.

وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1]. وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[2]. وقال ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[3].

وإنما المراد أن العمى التام في الحقيقة عمى القلب، حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال: النبي ﷺ:

١- الحج: ٤٦

٢- النور: ٦١

٣- عبس: ١-٢

«لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نفسه عند الغضب».[1]

وقوله ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالطَّوَّافِ، وَلَا بِالَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَلَا التَّمْرَتَانِ، وَلَا اللُّقْمَةُ وَلَا اللُّقْمَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ: الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ شيئًا، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ»[2]، ونظائره كثيرة.

والمقصود: أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم اهـ.[3]

١- البخاري ٥/ ٢٢٦٧

٢- «مسند أحمد» (٦/ ١٤٥ صحيح لغيره (الأرناؤوط)

٣- الجواب الكافي : ١١٧

دواء الصمم

1- التعظيم

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.[1]

تأمل جيدًا؛ تجد الازدراء الرهيب للرافض، فتستشعر حق الله في التعظيم والهيبة والإجلال.

ومن التعظيم أن تستعظم كلام الله، أن يوجه لك أنت، فتذل للوحي، وتذعن للدليل، وتسارع في الطاعة، خشية هذا التقريع الخطير.

- ومن التعظيم أن تغار على الحق، فتضن بمناقشة أمره وتأنف من مسايرة كل شبهة ولو نويت هداية أهلها؛ فليست كل الأمور تقبل المناقشة، وليس كل مشنع تسمع له.

١- الروم: ٥٢-٥٣

قال عَزَّوَجَلَّ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾[1]، فالشرط ﴿إِن نَّفَعَتِ﴾، أما إن غلب على ظنك عناد السائل وكبره ولغوه، فألقمه (بإعراضك عنه) أن هناك ثوابت في الدين تعتبر قضايا مسلمة لا تقبل النقاش والطرح؛ وإلا فيا خسارة جهدك ووقتك، ويا خوفي على ثبات فهمك، ويا أسفي على منهجنا العزيز وأنت تبعثره على موائد المتبطرين!

خودٌ تُزَف إلى ضرير مقعَد يا محنة الحسناء بالعميان

- ومن التعظيم ألا تأمنه!

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.[2]

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[3] أي ظن بنو إسرائيل أن لا يصيبهم من الله تعالى بما فعلوا بلاء وعذاب لزعمهم كما

١- الأعلى: ٩
٢- المائدة ٧٠
٣- المائدة: ٧١

قال الزجاج أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه أو لإمهال الله تعالى لهم أو لنحو ذلك، وعن مقاتل تفسير الفتنة بالشدة والقحط، والأولى حملها على العموم.

وهكذا، فأول من يتردى في الأمن من مكر الله والعياذ بالله هو المعجب المغرور المسارع في التعرض للشبهات ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾.

هذا طرف من التعظيم، وهو سبب تقوية السمع ودواء الصمم.

2- التسليم

يقول ربي جل جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾[1]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بل كانوا خائفين خاشعين، فالتذكير بآيات الله يمر على القلب فيمتحنه، فإن سلم وانقاد وإلا أصمه الله وأعماه.

3- ربط حاسة السمع بالجنة والنار

١- الفرقان: ٧٣

واها لعذاب النار بالسمع والصمم!

فكما كانوا في الدنيا يسمعون ويصمون فجمعوا الحالين رغم تضادهما طالما وافق الهوى، فكذلك هم في الآخرة: يسمعون، ويصمون!

يقول الملك جل جلاله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.[1]

ففي سياق العذاب ذكر أنهم لا يسمعون!

ثم لم تمر آيتان حتى ذكر صوت النار والعياذ بالله «الحسيس» الذي امتن الله على أهل الجنة بالعافية من عذاب سماعه، وقد أكثر الله جل جلاله من التخويف من عذاب الإسماع في

١- الأنبياء ٩٨ - ١٠٣

النار، ومن ذلك (ونعوذ بالله من كل ما هنالك):

- تعذيبهم بسماع حسيس النار وزفيرها وغيظها وفورانها: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾[1]، ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾.[2]

- تعذيبهم بكلام النار بصوتها والعياذ بالله: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾.[3]

- تعذيبهم بسماع بعضهم تأنيب بعض، وتبرؤهم من بعض، ومن ذلك: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾[4]،

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ۝٩٥ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ

١- الملك: ٧-٨

٢- الفرقان: ١٢

٣- ق: ٣٠

٤- غافر: ٤٧-٤٨

﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

- **غيظهم بضحك أهل الجنة عليهم:** ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.[2]

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. [3]

- **تعذيبهم بسماع مقولة خزي الشيطان لهم في النار:** ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ

١- الشعراء: ٩١-١٠٢
٢- المطففين ٣٤-٣٦
٣- الصافات: ٥٠- ٥٨

مِن قَبْلُ ۖ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[1]

- تعذيب أهل النار بسماع أصوات التعذيب فيها: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾[2] ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[3]: قال الطبري عن قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ﴾:أنه الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم للمنافقين الذين يصلون.اهـ وروي أنه واد يستجير أهل النار من صراخ أهله.

- تعذيبهم بسماع تقريع الملائكة لهم، حين تستقبلهم على باب النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ﴾[4]، و﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[5]،

وحين يستصرخون بمالك؛ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ

١- إبراهيم: ٢٢
٢- فاطر: ٣٧
٣- الماعون : ٤
٤- الزمر: ٧١
٥- الملك: ٨

أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.[1]

عن ابن عباس: أجابهم بعد ألف سنة: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

- تعذيبهم بسماع حسم الله أمرهم: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.[2]

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[3]

- ثم تعذيبهم بالصم؛ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا

١- الزخرف: ٧٤- ٧٨

٢- ق: ٢٨-٢٩

٣- المؤمنون ١٠٦ - ١١٥

وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.(١)

عن عبد الله بن عمرو، قال: إن أهل جهنم يدعون مالكًا أربعين عامًا فلا يجيبهم، ثم يقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، ثم ينادون ربهم ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فيدعهم إو يخلي عنهم مثل الدنيا، ثم يرد عليهم ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: فما نبس القوم بعد ذلك بكلمة إن كان إلا الزفير والشهيق في نار جهنم.

أما نعيم أهل الجنة بالسمع والصمم !

فإن الله قد صان أسماعهم عن سماع الأذى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾(٢)

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾(٣)، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾(٤)، ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾. (٥)

١- الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠
٢- الأنبياء: ١٠١ - ١٠٢
٣- الواقعة ١٠ - ١١
٤- الواقعة ٢٥ - ٢٦
٥- النبأ ٣٥ - ٣٦

وأما سمعهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾[1] يحبرون: يغنون! اصبر اليوم لتغني غدًا، وتغنيك أزواجك!

يروى أن في الجنة لمجتمعًا للحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها يغنين لأزواجهن ويغنين على شواطئ الأنهار.

ويسمعون أيضًا ألحان الأشجار: يروى أن رجلًا من قريش قال لابن شهاب: هل في الجنة سماع، فإنه حبب إلي السماع.

فقال: إي والذي نفسي بيده إن في الجنة لشجرًا حملُه اللؤلؤ والزبرجد تحته جوار ناهدات يتغنين بألوان يقلن:

نحن الناعمات فلا نبأس ونحن الخالدات فلا نموت فإذا سمع ذلك الشجر صفق بعضه بعضًا فأجبن الحواري، فلا ندري أأصوات الحواري أحسن أم أصوات الأشجار؟!

ويروى أنهم يسمعون أيضًا صوت إسرافيل يسبح بصوت ما سمعت الخلائق أحسن منه.

وأن داود عليه السلام ينصب له منبر رفيع في الجنة فيسبح عليه بأعذب صوت.

١- الروم: ١٥

وعن عبد الله بن المبارك عن مالك بن أنس: «إذا كان يوم القيامة ناد مناد: أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان أسكنوهم رياض المسك، ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي».

ويلهمون الذكر معًا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.(١)

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.(٢)

وأكرم ما يسمعون، وأشرف ما به يتنعمون أن يتجلى الله لهم، فيسمعون محاضرته وسلامه عليهم، جعلنا الله منهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.(٣)

١- الأعراف: ٤٣
٢- يونس: ١٠
٣- يس: ٥٥-٥٨

وخلاصة هذا الفصل..

أن السمع نعمة؛ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.[1]

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ﴾.[2]

وقد أقام الله عليك حجته الرسالية، فأسكتك كل عام خمسين جمعة، لتسمع رسالته، فضلًا عن كل ما سمعت طيلة عمرك، فمن أصغى للشرع وأنصت ولم يلغ، وكان ممن قالوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[3]؛ فقد أفلح، وكان سمعه حجة له، وإلا فقد أخبر الله أنه أصم لا يسمع، بل من شر الدواب الذين محق احتمالات هدايتهم، كيف لا وهم ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾[4]، ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾[5] ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[6]، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[7]، وذلك لأسباب تطابقت

١- القصص: ٧١
٢- الأنعام: ٤٦
٣- البقرة: ٢٨٥
٤- البقرة: ١٨
٥- البقرة: ١٧٠
٦- البقرة: ١٧٠
٧- الأنفال: ٢٣

مع أسباب الصمم الحقيقي.

ودواء ضعف السمع، التعظيم والتسليم والتعلق بالآخرة: بأسماع أهل الجنة وأهل النار.

وملحة هذه الخلاصة كلمة لابن الجوزي يصف فيها (فقط يصف) تفاوت الناس في تقبل المواعظ، ثم كلمة لابن القيم هي بمثابة تدريب على كيفية الانتفاع بالموعظة، فاختم الفصل بخير، بفهم تحليل ابن الجوزي، وتنفيذ خطة ابن القيم رحمهما الله.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القساوة والغفلة.

فتدبرت السبب في ذلك فعرفته، ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفته من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضاء إيلامها وقت وقوعها.

والثاني: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مُزَاح

العلة، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه.

فإذا عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها، وكيف يصح أن يكون كما كان؟

وهذه حالة تعم الخلق إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر: فمنهم من يعزم بلا تردد ويمضي من غير التفات، فلو توقف بهم ركب الطبع لضجوا كما قال حنظلة عن نفسه: نافق حنظلة!

و منهم أقوام يميل بهم الطبع إلى الغفلة أحيانًا، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ إلى العمل أحيانًا، فهم كالسنبلة تميلها الرياح! وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه كماء دحرجته على صفوان اهـ. [1]

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: قاعدة جليلة إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضَر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه.

١- صيد الخاطر ٢٤

فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.[1]

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا على:

١. مؤثر مقتض.

٢. ومحل قابل.

٣. وشرط لحصول الأثر.

٤. وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أشار إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا وهذا هو المؤثر.[2]

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.[3]

١- ق: ٣٧

٢- الفوائد ٣

٣- يس: ٦٩-٧٠

أي حي القلب وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا شرط التأثر بالكلام وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب.

قال ابن قتيبة: استَمَعَ كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله، فاذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب، وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

فاللهم اجعلنا ممن حملتهم نية الحب فسمعوا، واستحقوا بشراك بأنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

4
سماء
الخشية

قل: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾[1]

لم تكن أول جريمة في البشرية هي الحسد، ولا القتل، كل هذه توابع لجريمة أهم وهي عدم الخوف من الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2] فدرس العصمة من الذنب من أول أيام البشرية ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾[3]، أول معنى إيماني شعر به الإنسان الأول وجعله المثل الأفضل للبشر هو الخوف.

وهي حكاية كل ذنب نقع فيه؛ أننا نقدر عليه ولا نرى بأبصارنا وقوع عقوبة ولا تعجيلها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ

١- الأنعام: ١٥

٢- المائدة: ٢٧-٢٨

٣- المائدة: ٩٤

عَـذَابٌ أَلِيـمٌ﴾.[1]

فالخائفون ناجحون في امتحانات الغيب، ثم هم فائزون بالنجاة من العذاب الأليم، اللهم اجعلنا منهم!

أحبتي!

الخوف ليس هو البكاء

إن الخوف من الله حقيقة ليس هو البكاء عند سماع القرآن أو في السجود فقط، بقدر ما هو أيضًا في ترك الحرام بحزم وذكر نظر الله تعالى ومراقبته «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين**».[2]

١- المائدة: ٩٤

٢- متفق عليه

الملائكة تخاف!

وما لنا ألا نخاف والملائكة الذين لا يعصونه يخافون!

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾.[1]

إن ذكر خوف الملائكة مقصود، لتتأسى بهم قلوبنا؛ فإنه سبحانه أعقب ذكر خوفهم بأن أمرنا ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

١- النحل: ٤٩-٥١

والأنبياء المعصومون يخافون!

ومن بعد الملائكة ها هم النماذج البشرية المثالية المعصومة (الأنبياء) عليهم السلام كلهم يشهرون مشاعر الخوف ويعترفون لأممهم بالتعبد لله بها.

فيقول سبحانه عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وعن هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وعن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[3]، وعن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ

١- الأعراف: ٥٩
٢- الأحقاف: ٢١
٣- مريم ٤٤ - ٤٥

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.[1]

ثم ورث الداعية المؤمن من الأنبياء حاسة الخوف، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾[2]، وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.[3]

والخوف الذي دعم حراك النبيين للدعوة، صار بعد ذلك هو نفسه مادة دعوته التي يطالبهم بالتخلق بها باعتبارها من صميم التوحيد: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[4]، فالخوف من الله تعالى مأمور مهم لدرجة أن يكون في طليعة الأوامر الدعوية مع الأمر بالتوحيد.

وكما أن الخوف زاد للدعاة، فهو أيضًا سبب استفادة الناس من الدعوة؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.[6]

١- هود: ٨٤
٢-غافر: ٣٠
٣- غافر: ٣٢
٤- النحل: ٥١
٥- الأنعام: ٥١
٦- ق: ٤٥

خطر اجتناب الخوف

أعرفت أنك تحتاج الخوف؟

وأن الانتقائية في المواعظ وإيثار الترغيب على الترهيب بالهوى ودون فقه، سبب ذبول القلب وإظلام الوجه لغياب الخشية والخوف.

> قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك، بحيث صار باعثًا للنّفوس على التّشمير في نوافل الطّاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتّبسّط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا.

فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا، أو همًّا لازمًا، بحيث يقطع عن السّعي في اكتساب الفضائل المطلوبة

المحبوبة لله عَزَّوَجَلَّ لم يكن محمودًا.[1] انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فالاستغناء عن الخوف وتهميشه من القلب حرمان من نور الإخبات؛ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّ الخوف من المقامات العليّة، وهو من لوازم الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[4]، وقال ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله وأشدّكم له خشية**»[5].

وكلّما كان العبد أقرب إلى ربّه كان أشدّ له خشية ممّن دونه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[6]، والأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[7]. وإنّما كان خوف المقرّبين أشدّ؛ لأنّهم يطالبون بما لا يطالب به غيرهم فيراعون تلك المنزلة.

١- التخويف من النار: ٢٨
٢- آل عمران ١٧٥
٣- المائدة: ٤٤
٤- فاطر: ٢٨
٥- متفق عليه
٦- النحل: ٥٠
٧- الأحزاب: ٣٩

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: الخوف ينشأ من معرفة قبح الجناية والتّصديق بالوعيد عليها، وأن يحرم التّوبة، أو لا يكون ممّن شاء الله أن يغفر له، فهو مشفق من ذنبه طالب من ربّه أن يدخله فيمن يغفر له.

إن الخشية مفتاح العلم والعمل ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، وهي المحرك الآمن للمسارعة في الخير ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

فالخوف يجعل صاحبه وفيًا بعهد الله ثابتًا على الصلة والبر، فهو لكل خير سابق، مع السلامة من كوارث العجب والكبر ومحبطات العمل.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[2].

قالت عائشة: أهم الّذين يشربون الخمر ويسرقون؟

١- الرعد: ١٩ - ٢١

٢- المؤمنون: ٦٠

قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات».[1]

هل تريد أن تعرف لماذا يغيب أناس عن صلاة الجماعة وتفتقدهم المساجد؟ الجواب في هذه الآية الكريمة، قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.[2]

إنه الخوف يا عباد الله، محرك القلوب والخطوات إلى الجمعة والجماعات.

بل وقيام الليل والتهجد أيضًا هو بركة من بركات الخوف من الله، وغيابه هو السبب في ترك قيام الليل، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.[3]

١- السلسلة الصحيحة (١/ ٣٠٤)

٢- النور: ٣٦ - ٣٧

٣- السجدة: ١٦

والمجاهدون القائمون بذروة سنام الإسلام المتعرضون للفوز بالشهادة في سبيل الله، إنما أعلاهم لهذه البركة نور الخوف من الله ليتميزوا على الجبناء في أوقات الأزمات ونداء الفلاح: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.[1]

يا إلهي! ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ إن الخوف من الله رزق! وإنعام! واختصاص من ذي الجلال والإكرام.

ثم إنهم بعد جهادهم لممكنون منصورون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2]، إنها أيضًا فضيلة الخوف لما سكنت قلوبهم حققت نصرهم.

١- المائدة: ٢٣

٢- إبراهيم: ١٣ - ١٤

جزاء الخائفين

أحبتي، خافوا الله!

فإن جزاء الخوف مضاعفة الأمان: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.[1]

والخوف الذي يرهق أهله وتخشوشن به حياتهم: سيورثهم الرفاهية والراحة والمتعة ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.[2]

والخائفون الذين قل ضحكهم، سيضمنون في يوم العبوس سرورهم ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.[3]

١- الرحمن: ٤٦

٢- الإنسان: ٥-٨

٣- الإنسان: ١٠-١٢

وكما هرب ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[1] وكدرت لذاته التقوى؛ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.[2]

١- النازعات: ٤٠

النازعات: ٤١

لماذا يحب الله الذين يخافونه؟

وإن سألت عن سبب حب الله لهم، وإيثاره وتوفيقه لهم، فالجواب: لأنهم يخافونه من غير رؤيته سبحانه؛ قال عَزَّوَجَلَّ ذلك كثيرًا في كتابه: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[2]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[3]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[4]، ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[5]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.[6]

١- المائدة: ٩٤
٢- الأنبياء: ٤٩
٣- فاطر: ١٨
٤- يس: ١١
٥- ق: ٣٢ - ٣٣
٦- الملك: ١٢

وإنها لفضيلة يشرحها هذا الحديث القدسي الماتع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ لله ملائكة يطوفون في الطّرق يلتمسون أهل الذّكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلمّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السّماء الدّنيا.

قال: فيسألهم ربّهم عزّ وجلّ وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟

قال: تقول: يسبّحونك، ويكبّرونك، ويحمدونك، ويمجّدونك.

قال: فيقول: هل رأوني؟

قال: فيقولون: لا والله ما رأوك.

قال: فيقول: كيف لو رأوني؟.

قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة، وأشدّ لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا.

قال: يقول: فما يسألوني؟

قال: يقولون: يسألونك الجنّة.

قال يقول: وهل رأوها؟

قال يقولون: لا والله يا ربّ ما رأوها.

قال: فيقول: فكيف لو أنّهم رأوها؟

قال يقولون: لو أنّهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصًا، وأشدّ لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة.

قال: فممّ يتعوّذون؟

قال: يقولون: من النّار.

قال: يقول: وهل رأوها؟

قال: فيقولون: لا والله يا ربّ ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟

قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فرارًا وأشدّ لها مخافة،

قال: فيقول: فأشهدكم أنّي قد غفرت لهم.

قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنّما جاء لحاجة.

قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم بهم».[1]

أرأيتم إلى بهاء وجلال هذا الحديث القدسي؟

تأمل قوله سبحانه: هل رأوني ؟! كيف لو رأوني؟! هل رأوها؟! كيف لو رأوها؟!

إن فضيلة الخوف بالغيب يشكرها رب العزة ويجازي بها وكفى بسؤاله هذا سبحانه تزكية لفضلهم، اللهم اجعلنا منهم.

١- البخاري: ٥/ ٦٠٤٥

عن أنس رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ دخل على شابّ وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**».

قال: والله يا رسول الله إنّي أرجو الله وإنّي أخاف ذنوبي.

فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلّا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه ممّا يخاف**»[1]

إنه الضمان يا عباد الله، ربكم يغضب ممن لا يخافه، ويؤمن من يخافه.

«عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ذَكَرَ رَجُلًا: «فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ، أَوْ قَبْلَكُمْ، آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا - يَعْنِي أَعْطَاهُ - قَالَ: فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟

قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ.

قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللهِ خَيْرًا - فَسَّرَهَا قَتَادَةُ: لَمْ يَدَّخِرْ - وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي، أَوْ قَالَ: فَاسْهَكُونِي، ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا

فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ - وَرَبِّي - فَفَعَلُوا.

١- صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٣٣٨٣

فَقَالَ اللَّهُ: كُنْ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ.

ثُمَّ قَالَ: أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟

قَالَ: مَخَافَتُكَ، أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ.

فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ الله».[1]

وها هم السبعة المظللون في عرش الرحمن جعلنا الله وإياكم منهم، تأمل كلًا منهم تجد أنهم اشتركوا في صفة الخوف؛ قال ﷺ: «سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: إمام عدل. وشابّ نشأ في عبادة الله. ورجل قلبه معلّق في المساجد. ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال. فقال: إنّي أخاف الله. ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. ورجل ذكر الله خاليًا، ففاضت عيناه».[2]

كلهم خافوا الله، ليس فقط الذي دعته المرأة، بل من أقام العدل يخاف عدل الآخرة، والمحافظ على الجماعة يخاف سؤال الله يوم القيامة عن الصلاة، والذي يصون الحب في الله يخاف غيرة الله على أوليائه، والمخلص في النفقة يخاف

١- صحيح البخاري:٥/ ٢٣٧٨

٢- متفق عليه

الحبوط والتسعير في النار، كلهم أظلتهم الخشية في الدنيا فأظلهم العرش في الآخرة.

وقبل أن أذكر المخوفات من عذاب الآخرة دعونا نتساءل عن جوهر هذا الكتاب هل يجمع القلب بين الحب والخوف؟

قال المحبوب سبحانه: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ولك أن تتساءل: كيف تختم هذه الآية الوعيدية التهديدية بصفتي الرأفة والرحمة بل بالاسمين؟!

والجواب: أنه عَزَّوَجَلَّ رؤوف رحيم إذ ساق التهديد ولم يؤاخذ بغتة دون إقامة حجة وبيان، ولو لم يفعل لم يكن ظالمًا سبحانه؛ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[2]، فتوحيده وعبادته دون سابق تهديد حقه وحده، كما خلق وحده، وملك ودبر وحده سبحانه.

١- النحل: ٤٧

٢- الأنبياء: ٢٣

تعالوا نخاف بالحب، ونحب بالخوف

نخاف بالحب لأنه تفضل وتكرم علينا ببيان الوعيد على عصيانه، ونحب بالخوف فينضبط المحب بإجلال وتوقير ربه دون شطح ولا إدلال كأنه يحب بشرًا لا خالقًا.

انظر إلى رقة قلب أبي هريرة الخائف رضي الله عنه ومشاعره الممزوجة بالحب والخوف كيف أثمرت الإشفاق والعذوبة:

بكى أبو هريرة رضي الله عنه في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟. فقال: «أما إنّي لا أبكي على دنياكم هذه، ولكن أبكي على بعد سفري وقلّة زادي، وإنّي أمسيت في صعود على جنّة أو نار، لا أدري إلى أيّتهما يؤخذ بي».

مم نخـــاف؟

نخاف غضب الله تعالى، وعقوباته في الدنيا وسوء الخاتمة، ونخاف الآخرة والنار.

- إذا رأيت الله يعطي العبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أن ذلك منه استدراج اقرؤوا إن شئتم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.[1]

حتى النعم تجدد في قلب المحب إحساسه بالخوف لأنه يحب شيئًا أكثر من العافية؛ يحب رضا الله سبحانه ويخاف أن تستدرجه الراحة إلى نسيان حبيبه ومولاه.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، وَاشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ،**

١- القلم: ٤٤-٤٥

فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ ما تجدون من الزمهرير»[1]

نعوذ بوجهك ربنا من النار والزمهرير

- وقال ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ من نار. يغلي منهما دماغه. كما يغلي الْمِرْجَلُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عذابًا. وإنه لأهونهم عذابًا».[2]

سلم يا رب سلم

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «إنّ الميّت يصير إلى القبر. فيجلس الرّجل الصّالح في قبره، غير فزع ولا مشعوف. ثمّ يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام.

فيقال له: ما هذا الرّجل؟. فيقول: محمّد رسول الله ﷺ جاءنا بالبيّنات من عند الله فصدّقناه. فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله، فيفرج له فرجة قبل النّار. فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا.

فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله. ثمّ يفرج له قبل الجنّة.

١- متفق عليه واللفظ للبخاري

٢- مسلم ١/ ١٩٦

فينظر إلى زهرتها وما فيها. فيقال له: هذا مقعدك.

ويقال له: على اليقين كنت. وعليه متّ. وعليه تبعث إن شاء الله. ويجلس الرّجل السّوء في قبره فزعًا مشعوفًا.

فيقال له: فيم كنت؟

فيقول: لا أدري.

فيقال له: ما هذا الرّجل؟

فيقول: سمعت النّاس يقولون قولًا فقلته. فيفرج له قبل الجنّة. فينظر إلى زهرتها وما فيها.

فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك ثمّ يفرج له فرجة قبل النّار. فينظر إليها. يحطم بعضها بعضا.

فيقال له: هذا مقعدك على الشّكّ كنت. وعليه متّ. وعليه تبعث، إن شاء الله- تعالى».[1]

فيالله ما أشده من موقف لا ينبغي أن يغيب الخوف منه لحظة، الخوف من الغربة والوحشة والرهبة والظلمة والعذاب والضرب والخلود واليأس.

١- صحيح الترغيب والترهيب /٣٣٥٥٧

- وقال رسول الله ﷺ: «**إنّ هذه الأمّة تبتلى في قبورها. فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الّذي أسمع منه**».

ثمّ أقبل علينا بوجهه، فقال: «**تعوّذوا بالله من عذاب النّار**». قالوا: نعوذ بالله من عذاب النّار.

فقال: «**تعوّذوا بالله من عذاب القبر**».

قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

قال: «**تعوّذوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن**».

قالوا: نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

قال: «**تعوّذوا بالله من فتنة الدّجّال**»[1].

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدّجّال) .

تعوذوا يا أحباب كما تعوذ النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، واجعلوا الاستعاذة دندنة لا تفارق ألسنتكم، والإيمان بالمستعاذ منه يديم الخوف على قلوبكم.

١- مسلم /٤٢٨٦٧.

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر النّاس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا**». قلت: يا رسول الله النّساء والرّجال جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: «**يا عائشة الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض**».[1]

هذه والله العلوم التي تجلس الخوف على القلب فلا يبرح خائفًا غير آمن حتى يأمن يوم القيامة بالمغفرة والرحمة.

ولنختم هذا الفصل بهذا النموذج العملي للخائف الفذ فاروق هذه الأمة رضي الله عنه:

١- متفق عليه

خوف عمر رضي الله عنه

- قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه «لو نادى مناد من السّماء: أيّها النّاس إنّكم داخلون الجنّة كلّكم إلّا رجلًا واحدًا لخفت أن أكون أنا هو».
- عن كعب قال: قال لي عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يومًا وأنا عنده: «يا كعب، خوّفنا».

قال فقلت: يا أمير المؤمنين أو ليس فيكم كتاب الله وحكمة رسول الله ﷺ.

قال: «بلى. ولكن يا كعب، خوّفنا».

قال قلت: يا أمير المؤمنين، اعمل عمل رجل لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبيّا لازدرأت عملك ممّا ترى».

- عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- قال: «رأى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في يدي لحمًا معلّقًا قال: «ما هذا يا جابر؟».

قلت: اشتهيت لحمًا، فاشتريته.

فقال عمر: «كلّما اشتهيت اشتريت، أما تخاف هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾.[1]

- قال عبد الله بن عامر بن ربيعة: رأيت عمر بن الخطّاب أخذ تبنة من الأرض، فقال: «يا ليتني هذه التّبنة، ليتني لم أكن شيئًا ليت أمّي لم تلدني، ليتني كنت نسيًا منسيًّا».
- قال ابن عمر- رضي الله عنهما- كان رأس عمر على فخذي في مرضه الّذي مات فيه

فقال لي: ضع رأسي.

قال: فوضعته على الأرض.

فقال: «ويلي وويل أمّي إن لم يرحمني ربّي».

فاللهم يا أهل التقوى ألزمنا تقواك وخشيتك وحسن الخوف منك.

١- الأحقاف : ٢٠

5
سماء
الرجاء

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[1]

أسهل من ترضيه هو الله سبحانه، رغم أنه الذي لن ينفعك رضا إلا رضاه.

ومن أجَل أسمائه سبحانه الرحمن الرحيم الرؤوف.

فالرحيم: هو الذي يرحم من يطلب الرحمة ويتعرض لها،

والرحمن: الذي تبلغ رحمته المؤمن والكافر والأقدار كلها وإن كان ظاهرها الألم، والروؤف: هو الذي يختص بعض خلقه بأقدار العافية ظاهرًا وباطنًا.

فاصعد سماء الرجاء فإنك لن تقع، فربك لا يأس من رحمته، ولا غنى عن بركته، ولا حد لعطائه ولا محصي لنعمائه، ولا مانع لمراده، سبحانه من كريم بلغ كرمه أن يغضب على من لا يسأله! قال أكرم خلقه: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله غَضِبَ الله عليه».[2]

١- التوبة : ٥٩

٢- صحيح الأدب المفرد ٥١٣

إنهـا عظمـة العطـاء الربانـي حيـن يوجـب الطمـع، ويجعـل (الرجـاء) مـن صميـم التوحيـد الـذي هـو حـق الله علـى العبيـد.

ما الرجاء؟

فمن عبودية من استظل بهذه السماء: أن يتأمّل الخير ويستبشر بقرب وقوعه من الله الكريم سبحانه وينظر إلى سعة رحمته. فيمتلئ ثقة بجود الرّبّ، وهذا هو (الرجاء).

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: الرّجاء عبوديّة وتعلّق بالله من حيث اسمه: البرّ المحسن فذلك التّعلّق والتّعبّد بهذا الاسم هو الّذي أوجب للعبد الرّجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري.

فقوّة الرّجاء على حسب قوّة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته غضبه، ولولا روح الرّجاء لعطّلت عبوديّة القلب والجوارح، وهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا. بل لولا روح الرّجاء لما تحرّكت الجوارح بالطّاعة. ولولا ريحه الطّيّبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات. ولي من الأبيات (ابن القيم):

لولا التّعلّق بالرّجاء تقطّعت نفس المحبّ تحسّرا وتمزّقا

لولا الرّجا يحدو المطيّ لما سرت بحمولها لديارهم ترجو اللّقا

فتأمّل هذا الموضع حقّ التّأمّل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبوديّة والمحبّة، فكلّ محبّة مصحوبة بالخوف والرّجاء.[1] انتهى كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

والرجاء أيها المحب ليس للمحسنين المقربين فقط، بل هو عبودية للجميع يتناولها كل بحسبه، سواء قصر أو أحسن؛ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

المقصود من الرّجاء أنّ من وقع منه تقصير فليحسن ظنّه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأمّا من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور. وما أحسن قول أبي عثمان الجيزيّ:

من علامة السّعادة أن تطيع، وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشّقاء أن تعصي، وترجو أن تنجو.[2] اهـ.

١- مدارج السالكين: ٢٦٨/٢

٢- فتح الباري ١١/٣٠١

فالفرق بين الرجاء والتمني أنّ التّمنّي يصاحبه الكسل ولا يسلك صاحبه طريق الجدّ، فهو مستبعد وغير واقعي، أما الرّجاء فعلى الضّدّ من ذلك.

واللّغويون يعبرون عن الرّجاء ب«لعلّ» وعن التّمنّي ب«ليت».

فالرّجاء يفيد إمكان الوقوع بخلاف التّمنّي الّذي يفيد تعذّر الوقوع أو استحالته.

وانظر كيف تتقد همة أهل الرجاء؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.(١)

إنه محرك الهجرة والجهاد؛ بل والصبر الشديد أيضًا كما يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.(٢)

فالفرق الذي جعل المؤمن والكافر لا يستويان في الصبر هو الرجاء.

١- البقرة: ٢١٨

٢- النساء: ١٠٤

نعم هو سر الشجاعة والثبات والتضحية والإقدام بالروح والجسد والمال والولد، وانعدامه هو سر الجبن والهروب والشح والركون للدنيا.

وتأمل كيف يصبر الله أولياءه وأحبابه على الحياة بالرجاء في لقائه سبحانه لدرجة الاستبشار بالموت ! ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.[1]

إي والله فإن لقاء الودود سبحانه يهون كل متروك ويعوض كل مفقود ويعين على تجرع ما في الحياة أيًا كان طالما صارت النهاية إلى اللقاء المأمول.

بل تأمل كونه آت، يا له من خطاب حصري للمحبين، إنها دقيقة غير مؤثرة إلا في الشغوفين بالحب المفعمين بالشوق، في هذه الآية: اللقاء نفسه هو الذي سيأتيك لا أنت الذي تذهب إليه!

فالمطلوب منك فقط أن تتسلى وتتصبر بالرجاء مكانك حتى يأتيك أبهى وأبهج ما تأمله.

١- العنكبوت: ٥

يا لها من عبادة قلبية تطلق الهمة في كل طاعة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ

(٢)وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

(٣)وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1]

هل لاحظت في هذا السياق التنوع والتمكن لدى أهل الرجاء؟

الرجاء يبعث على العبادة بالجوارح والعبادة بالمال.

الرجاء يبعث على العبادة بالفعل (الذكر والصلاة) وبالترك (الصدقة).

الرجاء يبعث على العبادة السرية والجهرية

هذه الثنائيات من أهل الرجاء استحقت الثنائيات الربانية (بالوفاء بالأجور) ثم (الزيادة من فضله)، كما استحقت البشرى باسمي (الغفور) (الشكور) أنه سبحانه يغفر لهم ويكافئهم بما يليق بشكره جل جلاله.

١- فاطر: ٢٩

من ينوي الحب يشتد رجاؤه فتحيا أوقاته؛ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

إنها آية تحكي الاصطبار على طول الطاعة وانفعال القلب مع الجسد، وحيازة هؤلاء المحبوبين للعلم والعقل فأي شهادة في الوجود أشرف من شهادة الله لهم بالعلم والعقل، بل وأنهم يتذكرونه سبحانه لا ينسونه، اللهم اجعلنا منهم.

إنهم أبرار أقل جهد منهم هو عند ربهم الذي يرجونه كثير؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «**يا بلال حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإنّي سمعت دفّ نعليك بين يديّ في الجنّة**». **قال: ما عملت عملًا أرجى عندي من أنّي لم أتطهّر طهورًا في ساعة ليل أو نهار إلّا صلّيت بذلك الطّهور ما كتب لي أن أصلّي**».[2]

انظر إلى تعجب بلال نفسه من كرم الله وهو يحكي بساطة فعله!

نعم، إن أقل فعل عند خير مرجو يكون فعلًا عظيمًا، والسر

١- الزمر: ٩

٢- البخاري ١/١٠٩٨

أن الرجاء أفعال، وإن كانت أفعالًا بسيطة لكنها عبرت عن صدق الرجاء.

لأن هذا الرجاء سحر يطلق الهمة من الأعمال البسيطة حتى يجعل الروح نفسها ثمنًا هينًا لما يرجو، كما قال ﷺ يوم بدر لأصحابه: «**قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض**». فقال عمير بن الحمام الأنصاريّ رضي الله عنه: يا رسول الله، جنّة عرضها السّماوات والأرض؟. قال: **نعم**. قال: بخ بخ!

فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك بخ بخ**».

قال: لا. والله يا رسول الله إلّا رجاءة أن أكون من أهلها.

الآن فهمنا أن «بخ بخ» كان صوت قلب عمير رضي الله عنه أثناء تعمير سلاح الرجاء بطلقة الروح صوب الجنة!

فأجابه رسول الله ﷺ قائلًا: «**فإنّك من أهلها**».

وهنا انفجرت الروح من سلاح الرجاء الذي استخدمه قلب عمير رضي الله عنه، فنظر إلى تمرات كان يأكل منهنّ. وقال:

لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة!

فرمى التّمر، وقاتل حتّى استشهد رضي الله عنه.[1]

١- البخاري ١٩٠١/٣

أحبتي إن الراجي الصادق لا يخيب، ومعنى لا يخيب أي ينال رجاءه مهما كان ثمينًا بعيد المنال!

فعن أنس رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ دخل على شابّ وهو في الموت فقال: «**كيف تجدك؟**». قال: والله يا رسول الله إنّي أرجو الله وإنّي أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلّا أعطاه الله ما يرجو وآمنه ممّا يخاف**».[1]

يا إلهي! إنه الآن يموت، يعني لا يفعل بجوارحه شيئًا! إن الرجاء الآن عمل قلبي فقط! لا مال ولا جوارح الآن! كم أنت منقذ أيها الرجاء!

لكنه بلا ريب ثمرة تنبت في القلب بالإصرار على الرجاء طيلة الحياة، فاللهم أيدنا بحسن الرجاء فيك عند لقائك.

نعم ينبغي على المرء أن يقدم ثمن هذه الخاتمة بالحياة طوال عمره على الرجاء في كل لحظة، فإن رسول الله ﷺ قال: «**أربعون خصلة أعلاهنّ منيحة العنز ما من عامل يعمل**

١- صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٣٣٨٣

بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلّا أدخله الله بها الجنّة».[1]

إنها تمارين الرجاء طيلة الحياة بدوام الاحتساب والتسديد للثواب حتى يلقى الإنسان ربه بقلب راج فينجو.

والمناجاة هي تمرين الرجاء الأعظم، يقول رسول الله ﷺ فيما يروي عن رب العزة:

«يا بن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني
غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي
يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السّماء
ثمّ استغفرتني غفرت لك ولا أبالي
يا بن آدم إنّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا
ثمّ لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[2]

انظر لجلال كلمة «ولا أبالي» أي رجاء ينمو في الوجدان بعدها، أم أي رجاء يجده المقصر المذنب بعد قوله سبحانه «**لأتيتك بقرابها مغفرة**»، إنه كرم مذهل يبشر الذي يعمل ذنوبًا تملأ الأرض ويعطيه الحق في الرجاء!

١- البخاري ٢/٢٤٨٨

٢- صحيح الترغيب والترهيب ٢/٣٣٨٢

هنا تعلم لماذا يعتبر الرجاء ليس ترفًا ولا حقًّا للمحسنين وحدهم، لأنه يمس الإيمان بقدرة الله على المغفرة فينزل منزلة التوحيد الذي ضده الإياس والكفر.

صلى الله وسلم وبارك على الذي حدثنا هذا الحديث الإلهي الذي جمع فأوعى وبشر أهل الرجاء ولقنهم الثبات عليه، ومكن في الرجاء للمنيبين والمذنبين وجعله حقًّا وفرضًا على الجميع.

نعم الرجاء للجميع

قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد قال لا إله إلّا الله ثمّ مات على ذلك إلّا دخل الجنّة**».

قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**».

قلت: وإن زنى وإن سرق؟. قال: «**وإن زنى وإن سرق**». (ثلاثًا).

ثمّ قال في الرّابعة: «**على رغم أنف أبي ذرّ**».

قال: فخرج أبو ذرّ وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذرّ».[1]

نويت حبك يا أكرم الأكرمين يا من لم تقنط أهل الكبائر، يا من غلب كرمك ذهول أبي ذر، وغار على كرمك سيد البشر.

١- متفق عليه

هل تعرفون ابتسامة الواثق؟!

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه أتي بدابّة ليركبها فلمّا وضع رجله في الرّكاب قال: بسم الله، فلمّا استوى عليها، قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[1]، ثمّ حمد الله ثلاثًا، وكبّر ثلاثًا، ثمّ قال: «**سبحانك لا إله إلّا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي**»، ثمّ ضحك!

فقلت: ممّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟

قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثمّ ضحك، فقلت: ممّ ضحكت يا رسول الله؟

قال: «**يعجب الرّبّ من عبده إذا قال ربّ اغفر لي، ويقول: علم عبدي أنّه لا يغفر الذّنوب غيري**».[2]

١- الزخرف: ١٣- ١٤

٢- صحيح سنن أبي داود ٧/٢٣٤٢

إنه وثوق لدرجة الضحك!

إننا قد نفهم سبب ضحك الرب جل جلاله كغني لا تضره الذنوب، ويرحم عبده ويعفو عنه فيضحك لخوف عبده مع قرب رحمته سبحانه، لكن كيف نفهم ضحك العبد الذي يطلب المغفرة؟!

أأقدم صحيفتي وبها جناية، وأستغفر ربي الذي عصيته فيها، وأضحك وأنا أستغفر!

يا الله !

الآن وأنا أكتب لحضراتكم تذوقت المعنى!

إنه الرجاء بالضحك!

أرأيت إلى ضحك ولدك أو زوجك أو مرؤوسك وهو يخبرك بخطإ اقترفه رجاء أن تستصغره عندك وأن تقيله في كرمك، وفي تعوده على عفوك.

أو ضحك رجاءًا مع خجله من تكرار خطئه!

صدق رسول الله ﷺ: « لَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيئَسْ مِنَ الْجَنّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلّ الّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»[1]

نعم لو يعلم!

وليس معنى الحديث أنه سيرجو ربه رغم كفره فيظل عليه، بل حين يتعلم عن ربه، فيرجو أن يهديه فيهديه ثم يرجو أن يعفو عن ماضيه فينال كل ما يرجوه.

كما أن قوله سبحانه في الحديث القدسي الماتع: «أذنب عبد ذنبًا، فقال اللهمّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أنّ له ربًّا يغفر الذّنب ويأخذ بالذّنب، ثمّ عاد فأذنب، فقال أي ربّ اغفر لي ذنبي.

فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أنّ له ربًّا يغفر الذّنب ويأخذ بالذّنب. ثمّ عاد فأذنب. فقال أي ربّ اغفر لي ذنبي.

فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أنّ له ربًّا يغفر الذّنب ويأخذ بالذّنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»[2]

١- متفق عليه واللفظ للبخاري

٢- مسلم ٨/٢٧٥٨

يستحيل أن يأمر سبحانه عبده بمعصيته، بل إنه سبحانه يبشر من يرجوه بأنه رغم كونه خلق غير معصوم إلا أن ذنوبه هذه لن تضره طالما يعرف طريق العودة.

أما ابن القيم رحمه الله فقد أكثر في بشراه حتى شبهها بجنس بُشرى العشرة المبشرين بالجنة فقال:

واختصاصُ هذا العبد بهذا لأنَّه قد علمَ أنَّه لا يُصِرُّ على ذنبٍ وأنَّه كلما أذنب تابَ حكمَ يَعُمُّ كلَّ من كانت حالُه حاله، لكنَّ ذلك العبد مقطوعٌ له بذلك كما قُطعَ به لأهل بدرٍ.

وكذلك كلُّ من بَشَّرَهُ رسولُ الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنَّه مغفورٌ له؛ لم يَفْهَمْ منه هو ولا غيرُه من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصي له ومُسامَحتَهُ بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشدَّ اجتهادًا وحذرًا وخوفًا بعد البشارة منهم قبلَها؛ كالعشرةِ المشهودِ لهم بالجنة.

وقد كان الصدِّيقُ شديد الحذَر والمخافةِ، وكذلك عمرُ؛ فإنَّهم علموا أن البشارة المطلقة مقيَّدةٌ بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيَّدةٌ بانتفاءِ موانِعها، ولم يَفهمْ أحدٌ منهم من

ذلك الإطلاقَ والإذنَ فيما شاؤوا من الأعمال.[1] اهـ

إن هؤلاء المعتادين على التعبد بالرجاء لن ينقطع طمعهم في الله حتى إنهم ليتجرؤون على مناشدته سبحانه في أهل النار، فعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنّ ناسًا في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟

قال رسول الله ﷺ: «نعم»، الحديث وفيه: «**فوالّذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدّ مناشدة لله في استقصاء الحقّ من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الّذين في النّار يقولون: ربّنا كانوا يصومون معنا ويصلّون ويحجّون فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم فتحرّم صورهم على النّار فيخرجون خلقًا كثيرًا**».[2]

إذا كنت قرأت هذا الحديث فاغمض عينيك

وردد هذه الهملة كثيرًا حتى تعيشها:

أهل الرجاء سيدخلون جهنم لا يحترقون!

بل يدخلونها فرحين مُنقِذين!

١- الفوائد ١/٢٣

٢- مسلم ١/١٨٣

والآن افتح عينيك وتخيلني أبكي في النار وأرجوك إن كنت من أهل الجنة ولم تجدني فيها أن تستنقذني يومها من الحريق، عافاني الله وإياكم.

أهل الرجاء كرماء، أدمنوا الرجاء حتى طال طمعهم غيرَهم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما- أنّ النّبيّ ﷺ تلا قول الله عَزَّوَجَلَّ في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ﴾[1].

وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: **اللَّهُمَّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟** فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ عليه السلام بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: **يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**».[3]

اللهم صل على إمام الرجاء، وخير من مشى تحت أديم

١- إبراهيم: ٣٦

٢- المائدة: ١١٨

٣- مسلم ١/ ١٣٢

السماء، وارزقنا ورود حوضه ونزول منزلته، وجواره في الفردوس الأعلى، والنظر لوجهك يا علي يا أعلى.

الرجاء الرجاء يا من نويتم الحب، فإن لنا لقاء في كنف الرحمن كله رجاء.

فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنّه عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النّجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[1]

الرجاء الرجاء يا من نويتم الحب، فإن الرجاء يضاعف الحسنات!

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحسن أحدكم إسلامه فكلّ حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى**

١- البخاري٢/ ٨٦٢ - هود: ١٨

سبعمائة ضعف، وكلّ سيّئة يعملها تكتب له بمثلها»[1]

الحسنات فقط هي التي تضاعف، الرحمة هنا غالبة الغضب، كما قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»[2]

فعليكم بالرجاء مع كل نبضة قلب وفي كل ساعة، قال ﷺ «إنّ الله عزّوجلّ يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النّهار، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيل حتّى تطلع الشّمس من مغربها»[3].

اقرأ الحديث مرة أخرى، فلا وقت لليأس، ولا وقت يمنع فيه الرجاء.

ولا حد للرجاء عند من يعرف رحمة الله سبحانه التي وسعت كل شيء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال:

«إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».[4]

١- البخاري ١/٤٢

٢- البخاري ٣/ ١١٦٧

٣- مسلم ٤/٢٧٥٩

٤- مسلم ٨/ ٩٦

فكل مظاهر الرحمة في الدنيا تزيد رجاءك، فتدبر وتفكر في كل رحمة وأحب بها ربك وشدد بها رجاءك.

بل كل شيء في الوجود يزيد رجاؤك فيه، وأنا أذكر لك الآن حديثًا لو عملت به رجوت منك أن تدعو لي معك؛ قال رسول الله ﷺ: «**لا يموت رجل مسلم إلّا أدخل الله مكانه النّار يهوديّا أو نصرانيّا**»[1].

١- مسلم ٨/٢٧٦٧

حتى رؤية الكفار تدعو للرجاء!

تخيل أنك كلما رأيت كافرا فإن هذا داع للرجاء!

إنه فكاكك من النار كما قال الحبيب المختار ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة دفع الله عَزَّوَجَلَّ إلى كلّ مسلم يهوديًا أو نصرانيًا فيقول هذا فكاكك من النّار**»![1]

أترى ذنوبك هذه التي أوجبت النار؟ خذ هذا الكافر وألقه بدلا منك!!

إننا نعلم وجوب التوبة والاستغفار للمذنب، لكن هذه رحمة أخرى ينالها المذنب بالإضافة للتوبة والاستغفار. أن الله خلق له من يعذبون بدلًا منه! ببركة كلمة لا إله إلا الله التي حازها هو بينما حرموا منها.

١- مسلم٢٧٦٧

ولأن الرجاء يا أحباب هو المنقذ الأخير، وهو الملاذ الآمن من عذاب السعير، كما قال رسول الله ﷺ:

«**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»[1]، فأهل الرجاء ناجون من النار بكلمة، رغم ما اقترفوا وقصروا!

إن الرجاء حالة وجودية ملائمة لطبيعة الموجودين غير المعصومين كيلا يهلكوا؛ قال رسول الله ﷺ: «**والّذي نفسي بيده لولم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**».[2]

فلا مانع للرجاء في الله طالما لا معصوم بعد رسول الله ﷺ، ولله در يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ إذ يقول:

يَكَادُ رَجَائِي لَكَ مَعَ الذُّنُوبِ يَغْلِبُ رَجَائِي لَكَ مَعَ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنِّي أَجِدُنِي أَعْتَمِدُ فِي الْأَعْمَالِ عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَكَيْفَ أُصَفِّيهَا وَأُحْرِزُهَا؟ وَأَنَا بِالْآفَاتِ مَعْرُوفٌ. وَأَجِدُنِي فِي الذُّنُوبِ أَعْتَمِدُ عَلَى عَفْوِكَ، وَكَيْفَ لَا تَغْفِرُهَا وَأَنْتَ بِالْجُودِ مَوْصُوفٌ؟

١- البخاري ١/ ١٦٤

٢- مسلم ٢٧٤٩

ولنعد إلى معنى الرجاء الأسمى وهو رجاء الطيبين التائبين المحسنين بعد أن أكدنا حق المذنبين الخائفين من رب العالمين.

سُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ عَاصِمٍ: مَا عَلَامَةُ الرَّجَاءِ فِي الْعَبْدِ؟ فَقَالَ: أَنْ يَكُونَ إِذَا أَحَاطَ بِهِ الْإِحْسَانُ أُلْهِمَ الشُّكْرَ، رَاجِيًا لِتَمَامِ النِّعْمَةِ مِنَ اللهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَمَامِ عَفْوِهِ عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ. وَقَالَ أيضًا: إِلَهِي، أَحْلَى الْعَطَايَا فِي قَلْبِي رَجَاؤُكَ. وَأَعْذَبُ الْكَلَامِ عَلَى لِسَانِي ثَنَاؤُكَ. وَأَحَبُّ السَّاعَاتِ إِلَيَّ سَاعَةٌ يَكُونُ فِيهَا لِقَاؤُكَ.

ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

لَوْلَا التَّعَلُّقُ بِالرَّجَاءِ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسُ الْمُحِبِّ تَحَسُّرًا وَتَمَزُّقَا

وَكَذَاكَ لَوْلَا بَرْدُهُ بِحَرَارَةِ الْأَ ... كْبَادِ ذَابَتْ بِالْحِجَابِ تَحَرُّقَا

أَيَكُونُ قَطُّ حَلِيفُ حُبٍّ لَا يُرَى ... بِرَجَائِهِ لِحَبِيبِهِ مُتَعَلِّقَا

أَمْ كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّتُهُ لَهُ ... قَوِيَ الرَّجَاءُ فَزَادَ فِيهِ تَشَوُّقَا

لَوْلَا الرَّجَا يَحْدُو الْمَطِيَّ لَمَا سَرَتْ ... بِحُمُولِهَا لِدِيَارِهِمْ تَرْجُو اللِّقَا

١- مدارج السالكين ٢/٤٣

وعلاقة الحب بالرجاء وثيقة

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَعَلَى حَسَبِ الْمَحَبَّةِ وَقُوَّتِهَا يَكُونُ الرَّجَاءُ. فَكُلُّ مُحِبٍّ رَاجٍ خَائِفٌ بِالضَّرُورَةِ فَهُوَ أَرْجَى مَا يَكُونُ لِحَبِيبِهِ، أَحَبُّ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ. وَكَذَلِكَ خَوْفُهُ فَإِنَّهُ يَخَافُ سُقُوطَهُ مِنْ عَيْنَيْهِ.

وَطَرْدَ مَحْبُوبِهِ لَهُ وَإِبْعَادَهُ. وَاحْتِجَابَهُ عَنْهُ فَخَوْفُهُ أَشَدُّ خَوْفٍ وَرَجَاؤُهُ ذَاتِيٌّ لِلْمَحَبَّةِ فَإِنَّهُ يَرْجُوهُ قَبْلَ لِقَائِهِ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَإِذَا لَقِيَهُ وَوَصَلَ إِلَيْهِ اشْتَدَّ الرَّجَاءُ لَهُ، لِمَا يَحْصُلُ لَهُ بِهِ مِنْ حَيَاةِ رُوحِهِ، وَنَعِيمِ قَلْبِهِ مِنْ أَلْطَافِ مَحْبُوبِهِ، وَبِرِّهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ، وَنَظَرِهِ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الرِّضَا، وَتَأْهِيلِهِ فِي مَحَبَّتِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا حَيَاةَ لِلْمُحِبِّ، وَلَا نَعِيمَ وَلَا فَوْزَ إِلَّا بِوُصُولِهِ إِلَيْهِ مِنْ مَحْبُوبِهِ، فَرَجَاؤُهُ أَعْظَمُ رَجَاءٍ، وَأَجَلُّهُ وَأَتَمُّهُ.

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَوْضِعَ حَقَّ التَّأَمُّلِ يُطْلِعْكَ عَلَى أَسْرَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ أَسْرَارِ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَحَبَّةِ.

فَكُلُّ مَحَبَّةٍ فَهِيَ مَصْحُوبَةٌ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. وَعَلَى قَدْرِ تَمَكُّنِهَا مِنْ قَلْبِ الْمُحِبِّ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ، لَكِنَّ خَوْفَ الْمُحِبِّ لَا يَصْحَبُهُ وَحْشَةٌ، بِخِلَافِ خَوْفِ الْمُسِيءِ، وَرَجَاءِ الْمُحِبِّ لَا يَصْحَبُهُ عِلَّةٌ، بِخِلَافِ رَجَاءِ الْأَجِيرِ، وَأَيْنَ رَجَاءُ الْمُحِبِّ مِنْ رَجَاءِ الْأَجِيرِ؟! وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ حَالَيْهِمَا.[1]

فاللهم صلنا بحسن الرجاء فيك لنعيش عليه، ونلقاك به.

1- مدارج السالكين: ٢٦٨/٢

6
سماء
الإخلاص

القلب في أرجائه

من أروع ما يطير القلب أرجائه سماء الإخلاص، فالطيران يحب الخفة، فكلما كان القلب أخف استطاع أن يطير، والإخلاص هو نقاء القلب مما سوى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[1]

فهلم يا طالب الطيران إلى سماء الراحة من استرضاء بني آدم الذين لا يرضيهم شيء ولا يشبعهم شيء؛ قال رسول الله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب وفضة لابتغى إليهما آخر، ولا يملأ بطن ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**».[2]

لا سيما وقد صح قول رسول الله ﷺ: «**مَنِ الْتَمَس رِضا الله بِسَخَط الناسِ؛ رضي الله عنه، وأرْضى عنهُ الناسَ، ومَنِ الْتَمَس رِضا الناسِ**

١- الزمر: ٢٩

٢- السلسلة الصحيحة ٦/ ٩٦٦

بِسَخَطِ اللَّه، سخط الله عليه، وأَسْخَطَ عليه الناسَ»[1]!

سماء الإخلاص أن تبتغي وجه الواحد الأحد وترتاح من ابتغاء الذين خلق أغلبهم هلوعين، إذا مسهم الشر جزوعين، وإذا مسهم الخير منوعين.

اغتن بالإخلاص فإن شقاوة ابتغاء الدنيا تملأ القلب فقرًا وحاجة وحيرة وضنكًا، والإخلاص راحة من هذا العناء كله، اصعد سماء الإخلاص ليستريح قلبك!

١- صحيح الترغيب والترهيب ٢/٢٢٥٠

وقفة!

كان عبد الرحمن بن هرمز كثيرًا ما يعاتب نفسه ويقول: إن المنادي ينادي يوم القيامة: يا أهل خطيئة كذا قوموا، فتقوم يا أعرج معهم، ثم ينادي: يا أهل خطيئة كذا قوموا، فتقوم يا أعرج معهم، ثم ينادي يا أهل خطيئة كذا قوموا، فتقوم يا أعرج معهم، فأراك يا أعرج تقوم مع كل طائفة.

وإننا في هذا الكتاب نناقش سبع خصال، سبعة فقط على سبيل التركيز تصلحنا وتغير حياتنا، فلا شيء يخيفني إلا أن ينادى يوم القيامة على المحرومين منها فأكون المنادى مع كل طائفة.

وإننا الآن مع الفصل الخطير، الذي هو شرط كل خير، وجابر كل تقصير.

إذا كنت من عشاق الملخصات، فإليك أقوى تلخيص في الوجود، فإذا تخيلت اختصار كل ما أمرك الله بك في كلمة واحدة فإنها ستكون (الإخلاص)!

قال الواحد الأحد: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[1]، تلك هي الحكاية من أولها إلى آخرها، إرادة وجه الله فقط.

وسبب ذلك غنى الله تعالى عن خلقه كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾.[2]

فهذا الغنى يقنعك أن العبادة طالما لم تشرع لإرهاق الناس ولا للأخذ منهم فهي إذن شرعت لتحقيق التوحيد والبرهنة عليه.

إن هذه الآية ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ كأنها تقول: اعمل مخلصًا وإلا فلا! كما قال بعض السلف: (قولوا لمن لم يخلص لا تتعن).

فالإخلاص فرض في كل عمل، ثم هو شرط لقبول العمل، فباعتباره من التوحيد يكون أهم من العمل نفسه؛ «نية المرء أبلغ من عمله».

١- البينة: ٥

٢- البقرة: ٢٧٢

فالمرء متعبد بأن يخلص كل طاعة حتى يكون دينه كله خالصًا كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1].

وَقَالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

وقال النبي ﷺ «**ثَلَاث لَا يغل عَلَيْهِنَّ قلب رجل مُسلم إخلاص الْعَمَل لله ومناصحة وُلَاة الْأَمر وَلُزُوم جمَاعَة الْمُسلمين فَإِن دعوتهم تحيط من ورائهم**». [3]

ويتفاضل الناس عند الله تعالى بحسب إخلاصهم فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال ظن أبي أن له فضلًا على من هو دونه مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ الله هذِهِ الأُمَّةَ بِضَعيفَها، بِدَعْوَتِهِمْ، وَصَلاتِهِمْ، وَإِخْلاصِهِمْ**». [4]

ومن عرف الله سهل عليه الإخلاص؛ قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5]،

١- الزمر: ٣

٢- النساء: ١٤٦

٣- الطبراني وصححه ابن القيم في الفروسية

٤- صحيح سنن النسائي ٢/ ٦٦٩

٥- غافر: ٦٥

ولهذا فإن أكثر دعاء الذين يحبون الله هو الإخلاص:

كان من دعاء عمر رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا ولا تجعل فيه لأحد غيرك شيئًا»، ذلك أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان ابتغاء وجهه خالصًا؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1]

[1] الليل: ١٩-٢١

هل تطيق أن تعيش بدون علاقة بالله؟!

وفي الحديث القدسي: «**أنا أغْنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَنْ عمِلَ عملًا أشركَ فيه معِيَ، تركتُهُ وشِركَهُ**».(١)

وهذا عقاب أوجع من ضياع الأجر وهو إعراض الله وتركه للعبد؛ وإذا أعرض الله تعالى عن جهة أظلمت أرجاؤها وحلت بها النحوس والعياذ بالله، فليس أشأم من نزع بركة المعية، ولذلك فالإخلاص حبيب المؤمنين عدو الكافرين قال سبحانه: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.(٢)

والمحب يجاهد نفسه للإخلاص في كل طاعة طامعًا في الثواب، حتى يكون الإخلاص سجية ويتعود طعمه؛ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ

١- مسلم ٤/٢٩٨٥

٢- غافر: ١٤

ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾. (١)

بينما يقضي المرائي كل طاعة وهو لا يبالي بالنية حتى ينساها تمامًا وينسى طعم الإخلاص حتى تأتيه المفاجأة يوم القيامة؛ قال أبو هريرة رضي الله عنه: ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: «**يا أبا هريرة! أولئك الثلاثةُ أولُ خلقِ الله تُسعَر بهم النارُ يومَ القيامةِ**». (٢)

فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال: صدق الله إذ قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. (٣)

والإخلاص سر التوفيق؛ كان عمر رضي الله عنه إذا أخفق المصلحون بين الأزواج قال لهما: لو أردتما إصلاحًا لوفقكما الله؛ ويقرأ

١- الإنسان: ٨-١٢

٢- صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١١٦

٣- هود: ١٥-١٦

قول الله ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾[1].

فالتوفيق مرهون بإخلاص الإرادة.

١- النساء: ٣٥

الإخلاص ينصرك على الشيطان

وفي الإسرائيليات أن عابدًا كان يعبد الله دهرًا طويلًا، فجاءه قوم فقالوا: إن ههنا قومًا يعبدون شجرة من دون الله تعالى!

فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه، وقصد الشجرة ليقطعها.

فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟

قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة.

قال: وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك؟

فقال: إن هذا من عبادتي.

قال: فإنى لا أتركك أن تقطعها.

فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض، وقعد على صدره.

فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك. فقام عنه.

فقال إبليس: يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك، وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك، ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها

وأمرهم بقطعها.

فقال العابد: لا بد لي من قطعها.

فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره، فعجز إبليس.

فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع؟

قال: وما هو؟

قال: أطلقني حتى أقول لك. فأطلقه.

فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك، إنما أنت كل على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك، وتشبع وتستغني عن الناس.

قال: نعم.

قال: فارجع عن هذا الأمر، ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين، إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئًا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها.

فتفكر العابد فيما قال .

وقال: صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة.

فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده، فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه، فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئًا! فغضب وأخذ فأسه على عاتقه، فاستقبله إبليس في صورة شيخ.

فقال: له إلى أين؟

قال: أقطع تلك الشجرة.

فقال: كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها.

قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة.

فقال: هيهات!

فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور بين رجليه، وقعد إبليس على صدره، وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك، فنظر العابد فإذا لا طاقة له به.

قال: يا هذا غلبتني؟! فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولًا وغلبتني الآن؟

فقال: لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة، فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك.

فالشيطان لا سلطان له على المخلص، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]، ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص.

١- الحجر: ٤٠

خبراء الطيران في سماء الإخلاص

- كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهما: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس.
- كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي!
- قال سليمان: طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى.
- وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل.
- قال أيوب السختياني: تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال.
- كان مطرف يقول: من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه.

ورؤي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: كل شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات![1]

١- إحياء علوم الدين: ٤/٣٧٨

ما الإخلاص؟

قال العز بن عبد السلام: الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده، لا يريد بها تعظيماً من الناس ولا توقيرًا، ولا جلب نفع ديني، ولا دفع ضرر دنيوي.

حالة في غاية الحساسية لمردود الطاعة حتى تكون بلا مقابل من أحد إلا الله.

وقال سهل بن عبد الله التستري: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى، لا يمازجه شيء، لا نفس، ولا هوى، ولا دنيا، حيث يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [1].

١- الأنعام: ١٦٢

والعجيب في هذا التعريف ذكر السكون والسر، فالترك مثل الفعل، والسر مثل العلن، لا بد أن يكون كله ابتغاء وجه الله وحده.

- وقيل: هو تفريغ القلب من شوائب النية.

فطهارة الإخلاص من طهارة التوحيد، كما قال شيخ الإسلام أنه أطهر شيء وأصفى وأقل درن يلوثه.

وَقَالَ يعقوب المكفوف: الْمُخْلِصُ مَنْ يَكْتُمُ حَسَنَاتِهِ كما يكتم سيئاته.

إن قوة الصمت وكتمان الطاعات حصرية للمخلصين الذين يرون الطاعات كأنها عورات لا ينبغي أن تظهر، وأن كتمانها أربح وإخفاءها أكنز.

قال ابن أبي عون: «صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله -وكان خزازًا- يحمل معه غذاءه فيتصدق به في الطريق.

وآخر كان إذا بكى من خشيه الله أخذ طرف عمامته على وجهه وقال: ما أشد الزكام.

- وقيل: المخلص هو الذي لا يبالي بقدره في قلوب الناس رجاء صلاح قدره عند الله، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عباداته.

فالمنزلة بالنسبة للمخلص هي ما عند الله وحده، لا قيمة للمنزلة عند أحد سواه.

فرض أم شرط؟

- هل الإخلاص فرض في الطاعات، أم شرط لقبولها؟

بمعنى: هل الإخلاص واجب يأثم تاركه مع قبول العبادة الخالية منه؟ أم يلزم من عدمه انعدام (الأجر) بالكلية عن العمل؟ والجواب بحديثين شريفين:

الأول:

أن رجلًا قال لرسول الله ﷺ: أرأيتَ رجلًا غزا يلتمِسُ الأجرَ والذِّكرَ ما له؟

فقال: «**لا شيءَ له**».

فأعادها ثلاثَ مرَّاتٍ يقولُ: «**لا شيءَ له**».

ثمَّ قال: «**إنَّ اللهَ لا يقبلُ من العملِ إلَّا ما كان خالصًا وابتُغي به وجهُه**».[1]

١- صحيح النسائي ٢/٢٩٤٣

والثاني:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟

قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟

قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ.

قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟

قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ.

قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1]

فالحديث الأول أفاد حبوط أجر العمل، والثاني أفاد الوعيد بعذاب جهنم والعياذ بالله، فالإخلاص واجب وشرط.

١- مسلم ١٩٠٥

قلب المخلص غني قنوع مشغول بالله وحده!

قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يَجْتَمِعُ الإخلاصُ في القلبِ وَمَحَبَّةُ الْمدحِ والثَّنَاءِ والطَّمَعِ فِيمَا عِنْدَ النَاسِ، إلا كَمَا يَجْتَمِع الْمَاءُ والنارُ والضبُ والحوتُ.

فإذا حَدَثَتْكَ نَفْسُكَ بطلَبِ الإخلاصِ، فَأَقْبِلْ عَلى الطَّمَعِ أَولًا فَاذْبَحْهُ بِسِكينِ اليأسِ، وأقبلْ على الْمدحِ والثناءِ فازْهَدْ فِيهِمَا زُهْدَ عُشَّاقِ الدُّنْيَا فِي الآخرةِ.

فإذا استقامَ لك ذَبحُ الطَّمعِ والزهدُ في الثناءِ والمدحِ، سَهُلَ عَلَيْكَ الإخْلاصُ.

فإن قلتَ: وما الذي يُسَهِّلُ عَلَيَّ ذَبْحَ الطَّمَعِ والزُّهْدَ في الثناءِ والمدحِ؟

قلتُ: أَمَّا ذَبْحُ الطَّمعِ، فَيُسَهّلُهُ عَلَيْكَ يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ شَيءٌ يَطْمَعُ فِيهِ، إلا وَبيدِ اللهِ وَحدَهُ خِزَانَتُهُ لا يَمْلِكُهَا غَيْرُهُ، وَلا يُؤْتَى الْعَبْدُ منها شيئًا سِوَاهُ.

وأما الزُّهْدُ في الثناءِ والْمدحِ، فَيُسَهِّلهُ عَلَيْكَ عِلْمُكَ أَنَّهُ ليسَ أَحَدٌ يَنْفَعُ مَدْحُهُ وَيَزِينُ، وَيَضُرُّ ذَمُّهُ وَيَشِينُ إلا اللهُ وَحْدَهُ، قَالَ ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مَدْحِي زَيْنٌ وَذَمي شَيْنٌ، فَقَال النَبي ﷺ: «ذلكَ الله عَزَّوَجَلَّ».

فازهَدْ في مَدْحِ مَن لا يَزينُك مَدْحُهُ وفي ذَمِّ مَن لا يَشِينُكَ ذَمُّهُ، وارْغَبْ في مَدْحِ مَن كُل الزَّينِ في مَدْحِهِ وَكلُّ الشَيْنِ في ذَمِّهِ.

ولن يَقْدرْ عَلى ذَلكَ إلا بالصَّبر واليَقينِ، فَمَتَى فَقَدْتَ الصَّبْرَ واليقينَ كُنْتَ كَمَنْ أَرادَ سَفرًا في البَحْرِ في غَيْرِ مَرْكَبٍ، قَالَ الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[1].

وقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2] انتهى كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]

الثابتون على الطاعات هم المخلصون فقط؛ فما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل، قال أبو سليمان

١- [الروم: ٦٠]

٢- السجدة: ٢٤

٣- الفوائد ١/٢١٩

الداراني: «إنما رجع القوم من الطريق قبل الوصول، ولو وصلوا إلى الله تبارك وتعالى ما رجعوا».

- والذي يرائي الخلق هو مهان من ربهم؛ قال الحسن البصري: «هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ، وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ لَعَصَمَهُمْ، وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يُكْرِمْهُ أَحَدٌ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.[1]

١- الحج: ١٨

كيف نكون من المخلصين

أولًا: صدق اللجوء إلى الله:

قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل»، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه».[1]

إنني لم أحب أن أبرهن بهذا الحديث على صعوبة الإخلاص، وأن الرياء معضلته في كونه يخدع، لدرجة أن كثيرًا من المرائين لا يشعرون بجريمتهم كخفاء النملة على ثوب الإنسان لا يشعر به.

وإنما قدمته لنعلم أن الرحمة كبيرة بقدر التحدي، وأن الله القريب المجيب سبحانه الذي قلبك بين أصبعين من أصابعه ألجأك إليه في تحرير نيتك.

١- صحيح الترغيب والترهيب ١/٣٥

فرسول الله ﷺ أجاب على دهشتهم: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب نملة؟! بقوله ﷺ: «**قولوا اللهم**».

فالدعاء هو السلاح الأقوى، وهو عين العبادة كما قال رسول الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[1]، وإننا نوحد الله حين ندعوه ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2]، ونسترضيه حين ندعوه «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله غَضِبَ الله عليه**» [3]

إننا بهذا الدعاء نستأذن الله في الإخلاص كما أمرنا أن نستطعمه ونستكسيه: «**يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم**».[4]

فكأن الإخلاص لقمة القلب وكسوته، وغذاؤه وحلته وكأن حديث النملة هذا يقول: يا عبادي كلكم مراء إلا من أخلصته فاستخلصوني أخلصكم؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[5].

صحيح الجامع: ٣٤٠٧

٢- غافر: ٦٥

٣- صحيح الأدب المفرد ٥١٣

٤- مسلم ٤/٢٥٧٧

٥- ص: ٤٦

فالدعاء سبيل قوي للوصول لطعم الإخلاص.

ثانيًا: أن تنظر إلى غنى الله وسلطانه على من ترائيه:

ولنعد لنفس الحديث القدسي لنأخذ منه معنى آخر.

«يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما. فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا. فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم. كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم. ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم. وإنسكم وجنكم. كانوا على أفجر قلب رجل واحد. ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم. وإنسكم وجنكم. قاموا في صعيد واحد فسألوني. فأعطيت كل إنسان مسألته. ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم. ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».[1]

هذه العظمة التي تتجلى في كل كلمة من الحديث تؤهبك للإخلاص، فكل طمع أو أمنية ستجد الله تعالى يملكها وحده ويسديها وحده، والأكرم من ذلك والأغنى هو قوله: «إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني»، ردد هذه الجملة من الحديث وسبح بحمده من رب يعاملك لأجلك لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية.

وكل من سواه يعاملك لنفسه، أقول حتى الذين يحبونك في الله ولا يريدون منك مالًا، ولا شكورًا ولا أي مقابل، فإنهم يعاملونك لأجل الحسنات وهذه في النهاية مصلحة لأنفسهم ولولا الحسنات ما عاملوك! أرأيت أكرم وأغنى منه سبحانه؟!

١- مسلم ٤/ ١٩٩٤

ثالثًا: مراقبة الله ودوام المحاسبة:

المخلص يضبط نفسه متلبسة بالرياء، يواجهها ويقررها ثم يعترف إلى ربه عَزَّوَجَلَّ كما في سيد الاستغفار: «**وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي**».[1] فالاعتراف يهدم الاقتراف، والمراقبة والمحاسبة سبيل التسديد والمقاربة.

ومن المراقبة أن تعلم أن نظر الله إليك أسبق من نظر الناس الذين ترائيهم، ثم إن قلوبهم بين أصبعين من أصابعه فلا يملكون حبك أو بغضك حتى يأذن الله في قلوبهم نحوك. وكذلك أي مطامع في الدنيا لن تنالها إلا بإذن الله الذي لا يستحق منك أن تبتغي بالعبادة رضا غيره، أو نوال شيء من الدنيا .

وهذه خمس آيات تهدي إلى الإخلاص، وتعين العبد على التحرر من طلب الدنيا والخلاص:

١. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [2]

١- البخاري ٥/ ٢٣٢٤

٢- النساء: ١٣٤

٢. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. (١)

٣. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (٢)

٤. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾. (٣)

٥. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾. (٤)

فاحرس إرادتك بهذه الآيات، اجعلها ورد الإخلاص يقرؤها قلبك كل يوم، ويلقنها باليقين كل عمل تعمله، ويهدم من داخلك كل صنم تعبده.

١- هود: ١٥-١٦

٢- الإسراء: ١٨-١٩

٣- فاطر: ١٠

٤- الشورى: ٢٠

رابعًا: دوام والمثابرة والتصحيح

لماذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1]؟ يعني لماذا لا يقول المؤمن أنا مخلص؟ ويرى نفسه فعالًا للخيرات ويشهد لنفسه بالطاعات؟

إن مدح النفس والشهادة لها بالطاعة أو مجرد رؤيتها كذلك ولو في نفس المؤمن وسِرِّه، أول آثاره الطغيان وانهيار الهمة في الطاعات؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾[2]، فلهذا ختم الهادي سبحانه النهي عن الشهادة للنفس بالتقوى بقوله سبحانه: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

نعم لا يستطيع الإنسان أن يشهد لنفسه بمعاني الإيمان القلبية، فكما أخفاها الله فيما بين الناس فيشهدون فقط بالظاهر ويوكلون إلى الله السرائر كالإخلاص والرياء والتوكل والرغبة والخشية واليقين إلخ فكذلك بين المرء وقلبه يعرف الإخلاص ويعرف من نفسه الرياء، لكنه إذا سار في طريق الإخلاص وتخلى عن مظان الرياء لا يزال لا يرى نفسه تستحق الشهادة بالإخلاص، ويراها دومًا تحتاج للتحسين؛

١- النجم: ٣٢
٢- العلق ٦-٧

وهذا مراد الله تعالى من عدم تزكية النفس أن يظل المرء يستزيد من مكارم المعاني والعبادات القلبية وكم ورد ذلك عن السلف الصالح رحمهم الله ورضي عنهم:

خوف السلف على الإخلاص

- ذكر أبو بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ذات يوم: «أَهْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفَكَّرَ فِيهَا، حَتَّى ذَكَرَ الْمَوَازِينَ إِذَا نُصِبَتْ، وَالْجَنَّةَ إِذَا أُزلِفَتْ، وَالنَّارَ حِينَ أُبْرِزَتْ، وَصُفوفَ الْمَلَائِكَةِ، وَطَيَّ السَّمَاوَاتِ، وَنَسْفَ الْجِبَالِ، وَتَكْوِيرَ الشَّمْسِ، وَانْتِثَارَ الْكَوَاكِبِ، فَقَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ خَضِرًا مِنْ هَذِهِ الْخَضِرِ، تَأْتِي عَلَيَّ بَهِيمَةٌ فَتَأْكُلُنِي فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَتْ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.[1]
- أَبْصَرَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه طَائِرًا وَاقِعًا عَلَى شَجَرَةٍ، فَقَالَ: «طُوبَى لَكَ يَا طَائِرُ، تَأْكُلُ الثَّمَرَ، وَتَقَعُ عَلَى الشَّجَرِ، وَدِدْتُ أَنِّي ثَمَرَةٌ يَنْقُرُهَا الطَّيْرُ».

١- الرحمن: ٤٦

- وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لشدة خوفه من الله يلتقي بحذيفة فيقول: «أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ مع مَن سمى مِن المنافقين؟».
- وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَالٌ، فَنَشَجَ حَتَّى اخْتَلَفَتْ أَضْلَاعُهُ؛ ثُمَّ قَالَ: «وَدِدْتُ أَنِّي أَنْجُو مِنْهُ كَفَافًا لَا لِي، وَلَا عَلَيَّ».
- كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَمِيرًا عَلَى الشَّامِ، فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَاللهِ مَا مِنْكُمْ أَحْمَرُ وَلَا أَسْوَدُ، يَفْضُلُنِي بِتُقًى، إِلَّا وَدِدْتُ أَنِّي فِي مِسْلَاخِهِ».
- قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «وَدِدْتُ أَنِّي إِذَا أَنَا مِتُّ لَمْ أُبْعَثْ».
- وَقَالَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ: «وَدِدْتُ أَنِّي بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ».
- قَالَ كَعْبٌ: «وَدِدْتُ أَنِّي كَبْشُ أَهْلِي، فَذَبَحُونِي، ثُمَّ طَبَخُونِي، ثُمَّ أَكَلُونِي».

- قال سُفْيَان الثَّوْرِي: «وَدِدْتُ أَنِّي أُفْلِتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، لَا لِي، وَلَا عَلَيَّ».
- قال هَرِمُ بْنُ حَيَّانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاللهِ، وَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرِ، أَكَلَتْنِي هَذِهِ النَّاقَةُ فَقَذَفَتْنِي بَعْرًا، فَاتُّخِذْتُ جَلَّةً، وَلَمْ أُكَابَدِ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِمَّا إِلَى جَنَّةٍ، وَإِمَّا إِلَى نَارٍ، وَيْحَكَ يَا ابْنَ عَامِرٍ إِنِّي أَخَافُ الدَّاهِيَةَ الْكُبْرَى.

فمن كان هذا كلامه وحاله ثابر ليستزيد، وطمع في المزيد، وتخلص بسهولة من ذنبه ولم يكابر أو يكذب على ربه، فضلًا عن التواضع والافتقار والذل والإخبات.

خامسًا: اتهام العمل والاستغفار:

قال هِشَام الدَّسْتُوَائِي: وَاللهِ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ إِنِّي ذَهَبْتُ يَوْماً قَطُّ أَطْلُبُ الحَدِيْثَ، أُرِيْدُ بِهِ وَجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكان من دعاء مطرف بن عبد الله: اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أوف به لك، وأستغفرك مما زعمت أني أردت

به وجهك فضاع قلبي منه ما قد عملت.

وقد مضى في باب الفرار ألَّا يرضَى المرءُ نفسَه للهِ تعالى، بل يفر من رؤيتها ولا يمدحها وذكرنا مواضع الاستغفار بعد الطاعات كالحج والصلاة والوضوء وكفارة المجالس.

والمقصود أن الاستغفار هو تعويد للنفس على اتهامها بالعيب حتى تتخلص منه، والنقص حتى تدنو من الكمال.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ولله در الشيخ أبي مدين إذ يقول: مَنْ تَحَقَّقَ بِالْعُبُودِيَّةِ نَظَرَ أَفْعَالَهُ بِعَيْنِ الرِّيَاءِ، وَأَحْوَالَهُ بِعَيْنِ الدَّعْوَى، وَأَقْوَالَهُ بِعَيْنِ الِافْتِرَاءِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ فِي قَلْبِكَ، صَغُرَتْ نَفْسُكَ عِنْدَكَ، وَتَضَاءَلَتِ الْقِيمَةُ الَّتِي تَبْذُلُهَا فِي تَحْصِيلِهِ.

وَكُلَّمَا شَهِدْتَ حَقِيقَةَ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ، وَعَرَفْتَ اللهَ، وَعَرَفْتَ النَّفْسَ، وَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا مَعَكَ مِنَ الْبِضَاعَةِ لَا يَصْلُحُ لِلْمَلِكِ الْحَقِّ، وَلَوْ جِئْتَ بِعَمَلِ الثَّقَلَيْنِ خَشِيتَ عَاقِبَتَهُ وَإِنَّمَا يَقْبَلُهُ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ، وَيُثِيبُكَ عَلَيْهِ أيضًا بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ.

وهـذان العنصـران الأخيـران «اتهـام العمـل» و«المثابـرة فـي تصحيحـه» مبنيـان علـى طبيعـة النيـة وعنـاد النفـس فـي تصويبهـا، قـال سـهل بـن عبـدالله رحمـه الله: «ليـس علـى النفـس شـيءٌ أشـقُّ مـن الإخـلاص؛ لأنـه ليـس لهـا فيـه نصيـب»[1] اهـ.

بشرط أن هذا الاتهام لا يفتح الباب للوسوسة وترك الحسنات، بـل شـرطه الـلازم هـو الزيـادة المرئيـة المنظـورة الحسـية بحسـنات وطاعـات زائـدة.

قـال إبراهيـم النخعـي: «إذا أتـاك الشـيطان وأنـت فـي الصـلاة فقـال: إنـك مـراء، فزدهـا طـولًا».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى أو قيام ليل أو غير ذلك فإنه يصليه حيث كان ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سرًا لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص.

١- مدارج السالكين ١/٢٧٠

ولهذا قال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك. وفعله في مكانه الذي تكون فيه معيشته التي يستعين بها على عبادة الله خير له من أن يفعله حيث تتعطل معيشته ويشتغل قلبه بسبب ذلك فإن الصلاة كلما كانت أجمع للقلب وأبعد من الوسواس كانت أكمل.[1]

ولنستزيد من آثار السلف رحمهم الله في الخوف من الرياء.

- كان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه، (كلام الخطبة) وإذا كتب كتابًا فخاف فيه العجب مزقه ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.
- قال سفيان الثوري: ما عالجت شيئًا أشد علي من نيتي لأنها تنقلب علي.

١- مجموع الفتاوى ٢٣/١٧٤

- قال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد.
- ومضى معنا قول سهل بن عبدالله رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس على النفس شيءٌ أشقُّ من الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب».
- وقال يوسف بن الحسين الرازي: أعز شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على لون آخر.
- قَالَ شُعْبَة بن الحَجَّاجِ: مَا شَيْءٌ أَخَوْفُ عِنْدِي مِنْ أَنْ يُدْخِلَنِي النَّارَ مِنَ الحَدِيْثِ، وَعَنْهُ، قَالَ: وَدِدْتُ أَنِّي وَقَّادُ حَمَّامٍ، وَأَنِّي لَمْ أَعْرِفِ الحَدِيْثَ.
- قال الذهبي: كُلُّ مَنْ حَاقَقَ نَفْسَهُ فِي صِحَّةِ نِيَّتِهِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، يَخَافُ مِنْ مِثْلِ هَذَا، وَيَودُّ أَنْ يَنجُوَ كَفَافًا.

سادسًا: مخالفة الهوى:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.[1]

١- النازعات: ٤٠-٤١

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾[1]، وَقَالَ: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2]، وَقَالَ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3]، وَقَالَ: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[4]، وَقَالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[5]، وَقَالَ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[6]، وَقَالَ: ﴿لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[7]، وَقَالَ: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[8] وَقَالَ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾[9] وَقَالَ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾[10] وَقَالَ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.[11]

١- الأعراف: ١٧٦
٢- الكهف: ٢٨
٣- الجاثية: ٢٣
٤- الروم: ٢٩
٥- محمد: ١٤
٦- القصص: ٥٠
٧- الأنعام: ١١٩
٨- الكهف: ٢٨
٩- البقرة: ١٢٠
١٠- النساء: ١٣٥
١١- ص: ٢٦

فانظر كيف اجتمعت كل هذه الآيات على ذم الهوى وصاحبه؛ قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: صاحب الهوى هُوَ الْمُنَافِقُ لَا يَهْوَى شيئًا إلا رَكِبَهُ!

فكل ما اشتهت النفس وهوته ولو ظاهره الطاعة وجب تقوى الله فيه، فإن كان الأتقى لله تركه، أومخالفته وإتيان غيره مما يرضي الله اجتنبه بغير زهو أوعجب أوشهوة وذلك من توفيق الله والاقتراب من الإخلاص.

قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ يَعْنِي إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لأَهْلِهَا فِيهَا فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إلا دَخَلَهَا.

فَأَمَرَ بِهَا فَحُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ فَقَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ أَلا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ.

قَالَ: فَانْظُرْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لأَهْلِهَا فِيهَا فَجَاءَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ لأَهْلِهَا فِيهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: عزتك لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا.

فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ وَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ فَرجع إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلا دَخَلَهَا».[1]

والمؤلم هنا أن هذا الحديث ذكر أن جهنم حفت بما يوافق الهوى، وعمق الألم أن هذا الهوى قد يكون ظاهره طاعة وصلاح واستقامة من أجل لذة المدح والفخر والعجب فقط، ولو كان خالصًا لله ما اشتهت النفس هذا العمل كما تقدم من الكلام عن كراهية النفس للإخلاص.

كيف أميز بين (لذة الطاعة) و(الهوى)؟

وها هنا تنبيه وتوجيه وحل لمعضلة الفرق بين (لذة الطاعة) و(الهوى)؛ فإن الله تعالى شكور يجازي عبده بلذة الطاعة ونعيم القرب قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾[2] قال السلف: هم في نعيم في الدنيا بلذة الطاعة قبل أن ينالوا نعيم الآخرة بالجنة.

١- صحيح الترغيب والترهيب ٣/٣٦٦٩

٢- المطففين: ٢٢

كيف نكتشف الهوى إذا تلبس بالطاعة في نفوسنا؟

١. ويتجلى الفرق بسهولة بين الهوى ولذة الطاعة: بالعبادة في السر، فإن حببت إلى المرء فهي من الإخلاص، وإن كان النشاط في العلن والجهر فقط فهو الهوى.

٢. وإن كان المرء يؤدي الطاعات كلها، ويرعى شمولية الدين من طلب علم وعبادة ودعوة ومعاملات وحقوق وواجبات فإنه من الإخلاص، وأما تغليب باب وإهمال باب فإنه من أمارات الهوى.

٣. والاستمرار والديمة علامة الإخلاص، والانقطاع والانتقاص علامة الهوى.

٤. ولزوم العلم قبل العمل علامة الإخلاص، والعمل بجهل وتقليد من علامات الهوى.

٥. وحب الرئاسة واشتراط القيادة في الطاعات من الهوى، والرضا بقيادة الناس لك، ومشاركة العامة من الإخلاص.

٦. والعناد والاستكبار على مشورة ذوي الحجة والعلم من الهوى، والتواضع والنزول على رأي الحكماء والعلماء من الإخلاص.

٧. والاستسلام للتعود على نمط واحد يؤدي به الطاعة مخالفًا للسنة، أو متخذًا طريقًا واحدًا للسنة مع اختلاف طرق النبي ﷺ وعدم تفضيله لهذا النمط، قد يكون من الهوى، والتنوع في طرق السنة أفضل منه.

فاللهم إنك علمت أن الطاعات ليست سدى، وإنما يحتاج المرء فيها إلى مجاهدة فخذ بأيدينا إليها، ثم اهدنا لإخلاصها وأتقانها.

سابعًا قصر الأمل واستحضار الأجل:

كما قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ**»[1]، فذكر الموت دواء يومي بل أكثر من يومي لدرجة الإكثار من ذكره، لأن الإنسان ينساه وإذا نسيه تاه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[2]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى

١- صحيح: مشكاة المصابيح ١/ ٥٠٤

٢- آل عمران:١٨٥

نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2]، **وقال تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ

١- لقمان: ٣٤

٢- النحل: ٦١

٣- المنافقون:٩-١١

ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.[1]

فذكر الموت كفيل باحتقار الدنيا ومطامعها وتجديد الإخلاص والعيش به؛ قال رسول الله ﷺ: «إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا».[2]

فكأن رؤية وجه الله الكريم شيء يحبب في الموت ويبدد وحشته لأجل هذه اللذة القصوى التي تفوق الجنة نفسها،

١- المؤمنون ٩٩-١١٣

٢- صحيح الجامع ٤/٢٤٥٩

ومن ثم يلزم المرء الإخلاص ويصبره عليه ويحببه إليه.

قال ابن الجوزي: وإن لم تستطع قصر الأمل، فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تنس حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة، فامحها بتوبة، أو خرقًا، فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت، فتأمل ما مضى في ليلك. وإياك والتسويف، فإنه أكبر جنود إبليس.

وخذ لك منك على مهلةٍ ومقبل عيشك لم يدبرِ
وخف هجمةً لا تقيل العثَار وتطوي الورود على المصدرِ
ومثل لنفسك أي الرعيل يضمك في حلْبة المحشر

ثم صور لنفسك قصر العمر، وكثرة الأشغال، وقوة الندم على التفريط عند الموت، وطول الحسرة على البدار بعد الفوات. وصور ثواب الكاملين وأنت ناقص، والمجتهدين وأنت متكاسل[1].

وقال داود الطائي: سألت عطوان بن عمرو التميمي قلت: ما قصر الأمل؟ قال: ما بين تردد النفس.

١- صيد الخاطر ٢٠٦

قال رستم: فحدثت به الفضيل بن عياض، يعني يسأله عن المعنى.

فبكى وقال: يقول: يتنفس فيخاف أن يموت قبل أن ينقطع نفسه، لقد كان عطوان من الموت على حذر.

قال سفيان: كان قيس بن مسلم يصلي حتى السحر، ثم يجلس فيمسح البكاء ساعة بعد ساعة، وهو يقول: لأمر ما خلقنا، لئن لم نختم الآخرة بخير لنهلكن.

فانظر إلى ترقب الموت كيف يطيل العبادة ويحبب مخالفة الهوى ومن ثم يضمن الإخلاص، اللهم اجعلنا من أهله.

ثامنًا اعمل لنفسك:

إن الحبوط الذي هدد به رسول الله ﷺ المرائي فقال: «**لا شيء له**»[1]، يجعل المرء يضن بضياع الأجر، ويخاف أن يعمل في غير معمل وبلا فائدة، فيحشر بعد سنين العبادة كحال الذين

١- صحيح النسائي ٢/٢٩٤٣

ذكرهم الله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[1] وجوه لم ينفعها أنها كانت عاملة لا تفتر، ناصبة لا تستريح ثم انكوت بالنار الحامية.

إنها مأساة ورعب ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[2]، التي تجعل العبد يتراجع عن فساد النية، ويحرص على إخلاص الطوية ليقدم على الله تعالى مخلصًا مقبولًا، فيعمل لنفسه لا للهباء!

وإن العذاب الذي توعد الله به المرائين يستحق المجاهدة، فماذا في الوجود يستحق أن يسعر المرء في النار لأجله؟!

وماذا في الدنيا يهون من وعيد الله تعالى: «**تركته وشركه**»، وهو العذاب بأن يجعل الله أمر المرائي بيد الذين تزين لهم وهم الذين لا يملكون يوم القيامة لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، وذلك ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.[3]

١- الغاشية: ٢-٤

٢- الفرقان: ٢٣

٣- عبس: ٣٤-٣٧

إن المرائي مسكين؛ يرائي الناس وهم لا يأبهون به إلا مرورًا في يومهم وليس في حياتهم إلا خبرًا من الأخبار مهما كان مشهورًا، فكيف إذا قامت القيامة وحلت الحسرة والندامة.

قال مالك بن دينار: منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم. ولم أكره مذمتهم. قيل: ولم ذاك؟ قال: لأن حامدهم مفرط وذامهم مفرط.

تاسعًا استسهال المجاهدة والتلذذ بها:

وقال مالك بن دينار أيضًا: ما من أعمال البر شيء إلا دونه عقبة فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح، وإن جزع رجع.

إن الاختلاف في الإخلاص أسهل هو أم صعب، نوع سفسطة وضرب من اللغو؛ فإنه من حيث تشريعه: سهل كأصل الدين «**إن الدين يسر**»[1]، لا سيما إن كان واجبًا في كل عمل وشرط قبوله، فيحبط العمل بفقده ويأثم صاحبه بالإضافة إلى ذلك الحبوط، فإن ذلك كله يجعل مشقة تشريعه مستحيلة، فلو فهمنا أن حتى «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»[2] يجب فيها الإخلاص وإلا حبطت وأثم المتبسِم، ثم افترضنا صعوبة الإخلاص ومشقته لكان ذلك تشريعًا عسيرًا حاشا لله.

١- البخاري ١/٣٩

٢- صحيح الترغيب والترهيب /٣٢٦٨٥

ولكن من حيث شيوع الذنوب وعموم البلايا وكثرة الخبث إلا ما رحم الله عَزَّوَجَلَّ فإن الغارق في الدنيا يجد مشقة في تحرير هذا الإخلاص لله بقدر تعلقه بسواه.

ولهذا حل ابن القيم هذه العقدة بالسهل الممتنع فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فمن عوّد نفسه العمل للَّه لم يكن عليه أشق من العمل لغيره، ومن عوّد نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشقّ من الإخلاص والعمل للَّه، وهذا في جميع أبواب الأعمال)[1]. اهـ

إنها مسألة تعود، ومجاهدة كل عمل سواء الإخلاص أو غيره في بدايته يصعب وبالتعود عليه يلين؛ كما قال رسول الله ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتق الشر يوقه**»[2].

يتصبَّرْ يصبِّرْهُ الله».[3]

١- عدة الصابرين ١٠٧

٢- صحيح الجامع /١٢٣٢٨

٣- متفق عليه، واللفظ لمسلم

حتى الأعمال السيئة تكون شاقة على الصالحين حتى يتم انتكاسهم وتزل أقدامهم فتنعكس حياتهم وتعسر طاعاتهم وتيسر سيئاتهم، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.[1]

(قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوي فيه باعث الشهوة، ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد[2]).

وأما قول سهل بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس على النفس شيءٌ أشقُّ من الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب»، وغيره: «عالجت نفسي عشرين سنة» إلخ فكل هذا محمول على رياضة النفس واتهام النفس كما سلف، أما من حيث تشريع الإخلاص فإنه من الدين، والدين يسر، بل هو من التوحيد الذي يلزم كل الخلق ويستحيل أن يعسر، ولكن الذي يستسلم للرياء يصعب عليه الإخلاص.

١- الليل: ٥-١٠

٢- عدة الصابرين ١٠٦

عاشرًا استشعار أن الراحة في الإخلاص!

وهذا ما بدأنا به الفصل حول قوله تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له قد صار قلبه معبدًا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ويكون ذليلًا له خاضعًا وإلا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين إخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه؛ فالقلب إن لم يكن حنيفًا مقبلًا على الله معرضًا عما سواه وإلا كان مشركًا. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[2] اهـ[3]

١- الزمر: ٢٩

٢- الروم: ٣٠

٣- مجموع الفتاوى ١٠/٢١٦

علامات المخلصين

وإنه لسر لا يعلمه إلا الله؛ قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾. [2]

لكن له علامات وأمارات ومبشرات فمنها:

١- البركة والأثر:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[3]

فما كان لأجل الحق تعالى بقي ونفع، وما كان لسواه زال وانقشع.

قيل للإمام مالك: قد وطَّأ أُناس موطَّآت أخرى، أو شَبهها، فقال: «وَطَّؤُوا ووَطَّأْنا، ولا يبقى إلاَّ ما كان لله خالصًا»، فقد

١- التوبة: ١٠١
٢- غافر: ١٩
٣- الرعد: ١٧

وقَع الأمر كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه لَم يبقَ إلاَّ كتابه.

ولم تزل كتب الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كالأربعين النووية ورياض الصالحين موضع قبول الأمة وكان يقال إثر التعجب بذلك:،كانت له نية!

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[1]، فالكون كله موحد مخلص، فأينما حل المخلص بورك له محله، ونفع الله ببركته.

٢. المحبة في الأرض:

في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحببه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه. فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض**».[2]

١- مريم: ٣١

٢- البخاري ٣/٣٠٣٧

فحب الصالحين والطيبين أمارة لحب رب العالمين، وبغض الصالحين والطيبين أمارة بغض رب العالمين؛ قال ﷺ: «**أَنْتُمْ شهداء الله في الأرض**»[1].

٣. الهدوء والراحة وهجر المنافسة وحب الخمول.

فلا ينزعج المخلص أن يسبقه أحد، بل يحب الخير للجميع، وأكثر من مجرد الحب تجده يعين الجميع، لا حسد في قلبه ولا يتطلع لشهرة «**ما صدق الله عبد أحب الشهرة**».

قال إبراهيم النخعي: لقد تكلمت، ولو وجدت بدًا ما تكلمت، وإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء.

وعن سفيان عن أبيه عن إبراهيم قال: سألته عن شيء فجعل يتعجب، يقول: أُحتِيجَ إليّ، أُحتيج إليّ !

يعني كان يكره أن يتصدر لولا احتياج الناس إليه، وكان يؤسفه ذلك ويتعجب منه.

وهذا الخمول ليس بطالة، وإنما خفاء واستتار تحته جهد جبار في طلب العلم والدعوة والتعبد.

١- البخاري ١/ ٤٦٠

ومشاعرهم هذه ليست تكلفًا وتصنعًا بل نابعة من وجدهم على نفسهم وأسفهم من عيبها؛ قال خلف بن تميم: سمعت سفيان الثوري بمكة – وقد كثر الناس عليه – فسمعته يقول: ضاعت الأمة حين احتِيج إلى مثلي.

وكان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرًا ما يعاتب نفسه ويوبخها بقوله: تتكلمين بكلام الصالحين القانتين العابدين، وتفعلين فعل الفاسقين المرائين، والله ما هذه صفات المخلصين.

قال حذيفة المرعشي عن نفسه: ما في الأرض نفس أبغض إليّ منها فكيف أُعطيها شهوتها.

إنها آثار علمهم بالله تعالى، واستمتاعهم بالوجل؛ قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾.

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: سألتُ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآيةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[1]. قالت عائِشةُ:

١- المؤمنون: ٦٠

أهم الذين يَشرَبونَ الخَمرَ ويَسرِقونَ؟ قال: «لا يا بِنتَ الصِّديقِ، ولكِنَّهم الذين يصومون ويُصَلُّونَ ويتصَدَّقون وهم يخافون ألَّا تُقبَلَ منهم، أولئك الذين يسارِعونَ في الخيراتِ وهم لها سابِقون».[1]

قال يونس بن عبيد قال: إني لأعد مائة خصلة من خصال البر، ما فيَّ منها خصلة واحدة.

وقال محمد بن أسلم الطوسي: قد سرتُ في الأرضِ ودرتُ فيها، فبالذي لا إله إلا هو ما رأيت نفساً تصلي إلى القبلة شرًا عندي من نفسي.

فهذا حالهم يؤخرون منازلهم، فضلًا عن ألا يطلبوها من الناس أو يزعجهم عدم تقديرهم لهم، وهو ما ينشر مودتهم في القلوب لزهدهم في مدحهم أو ما في أيديهم وصدق رسول الله ﷺ: «وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس».[2]

١- السلسلة الصحيحة ١/٦٢

٢- مسلم ٣/١٥٩٩

٤. علو الهمة

المخلص أسرع مبادر لطاعة، وأبطأ مقترف لذنب، لأن مراده واحد وخوفه من شيء واحد، اقرأ هذه الفقرة وتأمل اتصال علو الهمة بحب الله تعالى، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فعلو الهمة: أن لا تقف دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلًا منه، ولا تبيع حظها من الله وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية.

فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التى تصل إليهم، فإن «الهمة» كلما علت، بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان، فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذب منه، وإنما تجتذب من المكان السافل، فعلو همة المرء عنوان فلاحه، وسفول همته عنوان حرمانه).[1]

١- مدارج السالكين ٣/ ٣ - ٤

ويقول شيخنا وشيخ شيوخنا الدكتور محمد بن إسماعيل المقدم حفظه الله[1]:

الهمَّة مَحَلهَا القلب

الهمة عمل قلبي، والقلب لا سلطان عليه لغير صاحبه، وكما أن الطائر يطير بجناحيه، كذلك يطير المرء بهمته، فتحلق به إلى أعلى الآفاق، طليقةً من القيود التي تكبل الأجساد.

إن يَسْلُب القومُ العِدا مُلْ ـكي وتُسْلِمْني الجموعْ
فالقلب بين ضُلُو عِهِ لم تُسْلِمِ القلبَ الضلوعْ

ونقل ابن قتيبة عن بعض كتب الحكمة: «ذو الهمة إن حُطَّ، فنفسه تأبى إلا عُلُوًّا، كالشعلة من النار يُصَوِّبُها صاحبها، وتأبى إلا ارتفاعًا».

همة المؤمن أبلغ من عمله: قال ﷺ: «**من هَمَّ بحسنة، فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة**».[2]

١- علو الهمة ١٦
٢- البخاري

وقال ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه».[١]

وقال ﷺ فيمن تجهز للجهاد، ثم أدركه الموت: «قد أوقع الله أجره على قدر نيته».[٢]

وقال ﷺ في حق المتخلفين عن غزوة تبوك من الحريصين على الخروج معه: «إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العذر».[٣]

وقال ﷺ: «ما من امرئٍ تكون له صلاة بليل، فغلبه عليها نوم، إلا كُتب له أجر صلاته، وكان نومُه صدقةً عليه».[٤]

فليس الشأن فيمن يقوم الليل، إنما الشأن فيمن ينام على فراشه، ثم يصبح وقد سبق الركب بعلو همته، وطهارة قلبه، وقوة يقينه، وشدة إخلاصه، وفي ذلك قيل:

من لي بمِثل سيرك المدللِ تمشي رويدًا وتجيء في الأوَّلِ

١- مسلم
٢- صحيح سنن النسائي
٣- متفق عليه
٤- صحيح الترغيب والترهيب

وما أحسن قول الشاعر مخاطبًا الحجيج، وقد انطلقوا للحج:

يـا راحلين إلـى البيت العتيق لقد سِرْتم جُسومًا وسرنا نحن أرواحا
إنـا أقمنـا علـى عُذْرٍ وعـن قَدَرٍ ومـن أقـام علـى عُـذرٍ فقـد راحا

٥- الصبر

والمخلصون فوق سحاب الصبر يطيرون

كثيـر مـن السـائرين يـرون الصبـر مُـرًّا حنظـلًا، لكـن المخلـص يحلـو الصبـر فـي ريقـه، ويحـدوه صامـدًا ثابتًـا فـي طريقـه، لأنـه يرجـو أعظـم مـا يُرجـى مـن الـرب الرحيـم وهـو أن يـرى وجـه الله الكريـم؛ قـال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.[1]

فابتغـاء وجـه الله يهـون أوجـاع الحيـاة، وعـلى قـدر إخـلاص العبـد يكـون الثبـات والصمـود، لأن الإخـلاص يـأس مـن الخلـق وزهـد فيمـا فـي أيديهـم، فيطيـب القلـب لأن ملجـأه إلـى رب لا يخيـب سـائله، ولا يضيـع راجيـه.

١- الرعد: ٢٢

انظر أيضًا كيف يذكر الإخلاص بفناء كل شيء لتستطيع الصبر على كل شيء؛ قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.[1]

وكذلك الصبر على طاعة الله يحتاج إلى طاقة الإخلاص ليدوم - ولنعم ما ختم الله لنا به[2] - قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.[3]

فالذي يريد وجه الله سبحانه يهون ماله فيتصدق به، وتهون سمعته فلا يطلبها بعمله، ولا يهون على الله فيضمن النجاة.

فاللهم ارزقنا الإخلاص لوجهك وإرادة رضاك والجنة
واجعل النظر لوجهك الكريم حظنا الدائم في الجنة

١- الرحمن: ٢٦-٢٧

٢- هذه آخر فقرة كتبتها في تنقيح ومراجعة الكتاب، بشرنا الله وإياكم بالإخلاص وحسن الختام

٣- الليل: ١٧-٢١

7
سماء
الحب

نحن مخلوقون نحب الله فالفطرة تقتضي محبته؛ قال الذي تألهه القلوب حبًا سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]، فكل اسم ووصف له استحق به الحب، فهو يحب لذاته وأسمائه وصفاته أولًا، يحب لأنه الله، يحب لأنه له الكمال كله والجلال كله.

فيا وَلَعَ العواذل كفّ عنّي ... ويا كفَ الغرام خذي عناني
لقد أمكنتَ حبّك من فؤادي ... مكانًا ليس يعرفه جَناني
كأنّك قد ختمتَ على ضميري ... فغيرك لا يمرّ على لساني

ثم إن كل ما في الحياة من خير فهو معطيه، وكل محبوب يرضيه هو مؤلفه، وكل يسير هو ميسره، وكل بسمة هو مضحكها، وكل نسمة هو باريها، وكل عافية هو مسديها، وكل نعمة هو معطيها، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2].

١- الأعراف: ١٨٠

٢- إبراهيم: ٣٤

اسمه جل جلاله (الله)
أي تألهه القلوب حبًا

أتى رجل إبراهيم بن أدهم وهو ساجد في صحن الكعبة وقد بلَّ الحصا بدموعه، وهو يتضرّع إلى الله ويقول:

هجرت الخَلْقَ طرًّا في هواكا وأسلمتُ العبادَ لكي أراكا
فلو قطعتني في الحبّ إربًا لما سكنَ الفؤاد إلى سواكا

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]، إن الجبار عَزَّوَجَلَّ الذي إعادة خلقه للكون عليه هين، يجعل بدائل المطرودين الذين ستقوم بهم الدنيا بعد هلاكهم قومًا يحبهم ويحبونه.

فضلًا أخي كرر التصور، وتذوق المعنى أكثر.

من سنن الله تعالى أن يستبدل من لا خير فيه بقوم وصفهم المجمل أنه سبحانه يحبهم وهم يحبونه، إنهم مادة الوجود

١- المائدة: ٥٤

إذن وهم باقون ببقاء الأرض، هم في الدنيا كالشمس والماء وسائر ضمانات بقاء البشر، اللهم اجعلنا منهم.

مالي سوى قلبي وفيكَ أَذَبْتُهُ ... مالي سوى دمعي وفيك بكيتُهُ

ماكنتُ أعرفُ ما الغرام ولا الأَسى والشوق والتبريح حتى ذُقْتُهُ

لو أنّ عندي والدموعُ سواجمٌ رمل القفار من الدموع بللتُه

صحبة الحب!

في كتابكم هذا طلبنا **النجاة والفرار والسماع والخوف والرجاء وطلبنا الإخلاص** لنحقق جميعا الحب، فهو المحرك لكل فعل والمانع لكل ترك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فالحب والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤه، فلا يكون الفعل إلا عن محبةٍ وإرادة، حتى دفعه للأمور التي يُبغضها ويَكرهها، فإنما يدفعُها بإرادته ومحبته لأضدادها، واللَّذة التي يجدُها بالدفع.كما يُقال: شفَى غيظَه، وشَفَى صدرَه. والشفاء والعافية يكون بالمحبوب وإن كان كريهًا، مثل شرب الدواء الذي يُدْفَع به ألمُ المرض، فإنه وإن كان مكروهًا من وجهٍ فهو محبوبٌ؛ لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب، وكذلك فعلُ الأشياء المخالفة

للهوى، فإنَّها وإنْ كانت مكروهةً فإنما تُفْعَل لمحبَّةٍ وإرادة، وإن لم تكن محبوبةً لنفسها فإنها مستلزمةٌ للمحبوب لنفسه.

فلا يتركُ الحيُّ ما يُحِبُّه ويهواه إلا لما يُحِبُّه ويهواه، ولكن يترك أضعفَهما محبةً لأقواهما محبَّة، ولذلك كانت المحبَّة والإرادة أصلًا للبُغض والكراهة.[1]

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا وَالنَّبِيُّ ﷺ خَارِجَانِ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سدَّة الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَتَى السَّاعَةُ؟

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**».

فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ.

قَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أحببت**». [2]

يا لعدة القلب ما أنفذها من عدة، ويا للحب ما أنجاه لقليل الحيلة، لا والله ما هو بقليل الحيلة، إنه خبير فهامة

١- روضة المحبين ٩٣

٢- البخاري ٦/ ٢٦١٥

لبيب عالي الهمة فعل كل ما يطيق وتجنب كل ما يطيق في سبيل محبوبه ووليه وعلم أن قمة الإعداد ليوم المعاد، وقمة الأعمال القلبية الحب!

فنال قمة المنازل العلية رفقة الحبيب ﷺ.

إنهم أقوى البشر إيمانًا وأكثرهم أعمالًا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1].

لا تناقض بين قولهم وفعلهم، ولا يستكثرون على الله مهجهم.

إنه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[2]

تخيل قومًا يمشون على الأرض وبلغوا منزلة أن ملك الملوك يحبهم ومع ذلك هم متواضعون لدرجة الذل! فقط لمن يؤمن بحبيبهم، شجعان لدرجة العزة على من رفض الذل لحبيبهم، ولدرجة الأمان من أي لائم في ذات حبيبهم.

واللوم لا يأتي من الأعداء فشجاعتهم الأولى غير الثانية، هذه في تحدي المبغوضين وتلك في المحبوبين.

١- الصف: ٤

٢- المائدة: ٥٤

وتأمل اختيار رب العزة هذه الأوصاف من أوصافهم العظيمة الكثيرة الشاملة المتنوعة؛ إنه سبحانه يغار فاختار من أوصافهم ما ينزه ذاته أن يُحِبُّ معه الأغيار.

ونبه قبل ذلك على أن جهادهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهم مخلصون لا يخلطون، موحدون لا يقترفون الشرك صغيره ولا كبيره، الذين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ يستحيل تخليهم عن توحيد من استوى على العرش لأجل سواه. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾.[1]

فإن قلت كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واأسفاه! واحسرتاه! كيف ينقضي الزمان، وينفد العمر، والقلب محجوب ما شمّ لهذا رائحة؟! خرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزًا، وموته كمدًا، ومعاده حسرةً وأسفًا!

١- البقرة: ١٦٥

فأبشرك بهذه اللفتة التي تفتح للمساكين أمثالنا الأمل، وهي قوله سبحانه في خاتمة الآية: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[1].

إن كل خيريتهم العظيمة هذه من جوده الزائد، انتقاء ومشيئة، من رب واسع! واسع! سبحانه واسع! لا حد لفضله سبحانه يوشك أن يسع المذنبين، عليم بأنهم لا حيلة لهم ولا حول ولا قوة ولا توفيق ولا كينونة إلا به جل جلاله.

إلَهي كيف لي بالقرب منك وقاسي القلب بعيد عنك؟
ليتَ شعري مَا الذي نلتُ أنا ليلةً أبرم فيها أمرنا
هل رضاني سيّدي عبدًا له أو رماني حين ألفتُ الخنا
ودعاني أمْرُهُ عن إذنه عبدُ سَوءٍ أنْتَ لم تصلح لنا
هكذا ياعبد سوءٍ هكذا بعدما واصلتنا قاطعتنا
قد دعوناك فما عجلت لنا واختبرناك فما أعجبتنا

ما العجب أن يسعنا حبه وهو ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾[2]، وهل التوابون إلا من كانوا قد تكررت عثراتهم؟! ومن المتطهرون إلا من كانوا قد رانت أدرانهم؟!

١- المائدة : ٥٤
٢- البقرة: ٢٢٢

إن الحب نفسه هو حادي المذنبين للتوبة إلى رب العالمين؛ بإطفاء اللذات المحرمة وكشف حقيقتها واحتقارها؛ فالمؤمن يتوب لأجل حب حبيبه عَزَّوَجَلَّ، ويثبت على توبته ببركة الحب الذي يجعله يرى استبداله لذة المعصية بدل حب الله كاستبدال البعر الخسيس بالجوهر النفيس.

كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذّته، تكون تلك اللّذة والحلاوة الإيمانية قد اسْتَترت عنه وتوارَت، أو نقَصَت أو ذهبت، فإنها لو كانت موجودة كاملةً لما قَدّم عليها لَذّةً وشهوةً لا نِسبة بينها بوجهٍ ما، بل هي أدْنَى من حبة خَرْدَلٍ بالنسبة إلى الدنيا وما فيها، ولهذا قال النبي ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ، حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**».[1]

فإنَّ ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يُؤثر عليه ذلك القدر الخسيس، وينهاه عما يُشَعِّثه وينقصه.

ولهذا تجد العبد إذا كان مُخلصًا لله، منيبًا إليه، مطمئنًّا بذكره،

١- متفق عليه

مشتاقًا إلى لقائه، منصرفًا عن هذه المحرمات لا يلتفت إليها، ولا يُعَوّل عليها، ويرى استبداله بها عَمّا هو فيه كاستبداله البَعْر الخسيس بالجوهر النّفيس، وبيعه الذهب بأعقاب الجَزر، وبَيعه المسك بالرّجيع.[1]

وهكذا ترى القلم استدرجنا من محبة العبد لله إلى حبه سبحانه للعبد، ولا عجب فإنه الودود هو من يلقن خلقه حبه ويتحبب إليهم ويحبهم قبل أن يحبونه وبعد أن يحبونه.

إنهم أصبر خلقه على قدر مُر، وأصبرهم على طاعة الأمر، وأصبرهم عن نبذ الذنب بالهجر؛ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. [2]

فَلَيْتَكَ تَحلُو والحياةُ مريرة ... ولَيْتَكَ تَرضَى والأَنامُ غِضابُ

وليتَ الذي بيني وبَيْنَكَ عامرٌ ... وبَيْني وبينَ العالمين خَرابُ

وما صبَّرهم إلا أنس حبه لهم وحبهم له، ولهذا قال بعض السلف: «مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيبَ ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبَّة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتنعُّم بذكره وطاعته».

طيران والله!

١- إغاثة اللهفان ٢/١٩٩

٢- آل عمران: ١٤٦

حديث الحب

والآن فلنحلق إلى حديث الحب في ليلة من ليالي الحب الإلهي النبوي؛ وهو عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: احْتُبِسَ عَنَّا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَرَاءَى عَيْنَ الشَّمْسِ، فَخَرَجَ سَرِيعًا فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ وَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ فَقَالَ لَنَا: «عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ» ثُمَّ انْفَتَلَ إِلَيْنَا.

فَقَالَ: «أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الغَدَاةَ.

أَنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي فَاسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ.

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ!

قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟

قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ! قَالَهَا ثَلَاثًا.

قَالَ: «فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ

ثَدْيَـيَّ، فَتَجَلَّـى لِـي كُلُّ شَـيْءٍ وَعَرَفْـتُ.

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!

قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ!

قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الأَعْلَى؟

قُلْتُ: فِي الكَفَّارَاتِ.

قَالَ: مَا هُنَّ؟

قُلْـتُ: مَشْـيُ الأَقْـدَامِ إِلَـى الجَمَاعَـاتِ، وَالجُلُـوسُ فِـي المَسَـاجِدِ بَعْـدَ الصَّلَـوَاتِ، وَإِسْـبَاغُ الوُضُـوءِ فِـي المَكْرُوهَـاتِ.

قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟

قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ.

قَالَ: سَلْ.

قُلْتُ:

اللَّهُمَّ إِنِّـي أَسْأَلُكَ فِعْـلَ الخَيْـرَاتِ، وَتَـرْكَ المُنْكَـرَاتِ، وَحُـبَّ المَسَـاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِـرَ لِـي وَتَرْحَمَنِـي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَـةً فِـي قَـوْمٍ فَتَوَفَّنِـي غَيْـرَ مَفْتُـونٍ، وَأَسْـأَلُكَ حُبَّـكَ، وَحُـبَّ مَـنْ يُحِبُّـكَ، وَحُـبَّ عَمَـلٍ يُقَـرِّبُ إِلَـى حُبِّـكَ».

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا»[1]

يا لها من ليلة لعلها من أغلى وأحب الليالي إلى رسول الله ﷺ، وإننا نحتاج أن نتأمل تدرج الإدراك النبوي في هذه الليلة.

نريد أن نتأمل التدرج من مرحلة: «لا أدري» إلى مرحلة «عرفت كل شيء»، متى وكيف سأل رسول الله ﷺ هذا الدعاء «أَسْأَلُكَ حُبَّكَ».

١. في عمق الليل وقت القرب الإلهي.
٢. والحبيب ﷺ ساجد؛ أقرب ما يكون العبد من ربه.
٣. وقد نعس ﷺ وهي حالة يباهي فيها رب العزة بعبده النائم في السجود، فضلًا عن ارتفاع الروح حال النوم إليه.
٤. ورؤيا النبي ﷺ حق.
٥. والرحمن وضع الرحمن كفه في ظهره ﷺ.
٦. وقد اطلع عليه الصلاة والسلام على الغيب، بعد أن قال في البداية: لا أدري لا أدري، الآن صار يدري بعد أن

١- صحيح مشكاة المصابيح ٢/٧٤٨

وضع الرحمن كفه في ظهره قال عليه الصلاة والسلام: «فعرفت كل شيء»، فلما صار يدري طلب الذي رآه هو قمة المخفيات الغيبيات «أسألُكَ حُبَّكَ».

٧. وقال له الرحمن الكريم الودود: «سل»، يعني حان وقت إكرامك وإتحافك فتمنى.

فبعد تمام كل هذه المقامات والكرامات السبع مجتمعة معًا نطق عليه الصلاة والسلام بكل ما يتوقع حول الحب:

«حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ
وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ».

قال رجل لطاوس رَحِمَهُ اللَّهُ: أوصني، قال: «أوصيك أن تحبَّ الله حبًّا حتى لا يكون شيء أحبَّ إليك منه».

محبة الحبيب ﷺ

وإن أول حبيب من البشر ينفعنا حبه عند الله تعالى هو رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[1] فمحبته هي سبيل محبة الله لنا، وهي أيضًا علامة محبة لنا، وهي كذلك أثر محبتنا لله، فاللهم صل وسلم وبارك على الحبيب الذي أحبه الشجر والحجر والشمس والقمر والظل والمطر.

صل اللهم على نبينا الذي هو أكثر من يتمنى الناس رؤيته ولو في المنام؛ القائل: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**».[2]

إن حب الله تعالى شرطه حب النبي ﷺ، لأن حبه ﷺ ليس كلاما بل أفعال، وهو ما يعني لزوم رضا الله في كل شيء.

١- آل عمران: ٣١

٢- مسلم ٨/ ١٤٥ ط التركية

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «زعم قوم أنهم يحبُّون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادَّعى محبَّة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي».

وهل صادق مَنْ يدَّعي حُبَّ ربِّه
وأمسى عن اللَّذات غير صبور
ويسلو عن الدنيا وعن كل شهوة
وعن كل ما يودي بوصل سرور

حب الصحابة والصالحين

وإن من حُب مَنْ يحبُّه الله عَزَّوَجَلَّ أن نحب سائر الصحابة رضي الله عنهم، وأولياء الله الصالحين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأصل العبادة محبَّة الله؛ بل إفراده بالمحبَّة، وأن يكون الحبُّ كله لله، فلا يحبُّ معه سواه؛ وإنما يحبُّ لأجله وفيه، كما يحبُّ أنبياءه، ورسله، وملائكته، وأولياءه، فمحبَّتنا لهم من تمام محبَّته، وليست محبَّةً معه».[1]

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه وَجَد حلاوة الإيمان، وفي لفظ: لا يجد طَعم الإيمان إلا مَن كان فيه ثلاث:

١. مَنْ كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما.
٢. وأن يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله.
٣. وأن يَكْرَه أن يرجعَ في الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، كما يكره أن يُلقى في النار».[2]

١- مدارج السالكين ١/١٥١
٢- البخاري ١/٢١

وقال ﷺ: «إنَّ أوْثَقَ عُرى الإيمانِ أنْ تُحِبَّ في الله، وتُبْغِضَ في الله».[1]

قال أبو الفرج الهمداني: دخلتُ جامع البصرة فرأيتُ شابًّا يكتب شيئًا.

فقلت: أيّ شيء تكتب؟

فقال لي: أسماء المحبين.

فقلت له: بالله عليك اكتبني فيهم.

قال: لا.

فوقع عليّ من البكاء ما لم أطقه.

فقال لي: يا شيخ ما يُبكيك؟

فقلت له:

إن لم تكتبني في المحبين، فاكتبني فيمن يحبّ المحبين!

فلمّا جَنّ الليلُ إذا أنا بهاتفٍ يهتف بي ويقول لي: يا أبا الفرج:

قد غفر اللهُ لكَ ذنوبك بقولك: اكتبني فيمن يحبُ المحبين.

١- صحيح الترغيب والترهيب ٣/٣٠٣٠

فحب الصالحين طاعة تجلب الحب، والتمادي فيها ونشر حقوقها هو مراد الله تعالى في الأخوة في الله؛ قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه**»[1]، ولا يخفى ما في ذلك من التواد ونشر الروح السمحة في البيئة المؤمنة.

١- صحيح مشكاة المصابيح ٣/٥٠١٦

هل من حقك أن تقول: الله يحبني؟!

الحب أكثر معنى يتجرأ على ادعائه الكاذبون؛ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

فليس من حق الإنسان أن يدعي أن الله يحبه طالما لا يعلم أن الله غفر له.

وهذا نفسه يجعل المرء يثبت على الطاعة دائم الرجاء والرغبة والخوف على السواء حتى يرزقه الله حسن الخاتمة، ويلقى ربه فيعرفه بحبه كفاحًا؛ أما في هذه الدار فلا يزال متهمًا نفسه بالتقصير محذرًا لها من الحرمان من الحب.

١- المائدة: ١٨

تبعدون عَنّا ونرسل إليكم مسائل هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ وتُذنبون فيأتيكم منّا عذرٌ، لو لم تُذنبوا لأتى اللهُ بقومٍ يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم.

تشاغلتُمُ عنّا بصحبة غيرنا وأظهرتُمُ الهجران ما هكذا كُنا
وأقسمتم أن لا تحولوا عن الهوى فقد وجلال الله حلتم وما حلنا

هل يليق الحب بلا أدب؟

والوجه الآخر لعملة (الدعاوى) هي (الشطحات)، ونسبة أصناف من الحب لا تليق بمقام الربوبية وجلال الألوهية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواعٌ مُتفاوتة في القَدْر والوصف، كان أغلبُ ما يُذكر فيها في حق الله تعالى: ما يختَصّ به ويليقُ به،

☑ كالعبادة. ☑ والإنابةِ. ☑ والإخْباتِ.

ولهذا لا يُذكر فيها لفظ:

☑ العشق. ☑ والغرام. ☑ والصَّبابة. ☑ والشَّغَف. ☑ والهوى،

ويذكر لها لفظ ☑ المحبة، كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1].

١- المائدة: ٥٤

وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2] اهـ.[3]

وهذا أدب الحب، وكما قال أنس رضي الله عنه: الأدب في العمل علامة قبول العمل.

١- آل عمران: ٣١

٢- البقرة : ١٦٥

٣- إغاثة اللهفان ٢/١٣٣

الخوف على الحب

وليس معنى ذلك أن من سلم من دعاوى اليهود وشطحات الصوفية وصار من طلبة العلم المتبعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ضمن حب الله تعالى؛ فإن معرفة الحب غير ممارسته وذوقه كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

> وليس هذا مما يحصل معناه بالعبارة بل هو أمر انشق القلب واستقر في سويدائه لا تفي العبارة بمعناه، ولا مطمع في حصوله بالدعوى والأماني.

وكل يدعي وصلًا لليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاك

وفرق بين علم الحب وحال الحب. فكثيرًا ما يشتبه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده، وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال وهو مثخن بالمرض، وبين الصحيح السليم، وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها. وكذلك فرق بين وصف الخوف والعلم به وبين حاله ووجوده.

علامات الحب

ومن منارات الحب: **الرضا**؛ ولقد سأل رجل الفضيل بن عياض رحمه الله، فقال: يا أبا علي، متى يبلغ الرجل غايته من حبِّ الله تعالى؟

فقال له الفضيل: «إذا كان عطاؤه ومنعه إيَّاك عندك سواءً، فقد بلغت الغاية من حبِّه».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن ألحَسَ جمرةً أحرقت ما أحرقت، وأبقت ما أبقت، أحبُّ إليَّ من أن أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن: ليته كان».

وصدق النبي ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ**».[1]

أصيب رجل من السلف بالعمى والجذام والشلل، حتى يقع الزنبور عليه فيقطع لحمه، فكان يقول: «وعزَّتك وجلالك، لو قطعتني إرْبًا إرْبًا، أو صببت عليَّ البلاء صبًّا، ما ازددت إلَّا حبًّا».

١- صحيح سنن النسائي» (١/ ١٢٣٧

إن الطبيب بطبِّه ودوائه
لا يستطيع دفاع مقدور القضا
ما للطبيب يموت بالداء الذي
قد كان يبرئ مثله فيما مضى
ذهب المداوي والمداوى والذي
جلب الدواء وباعه ومن اشترى

المحب يعيش مع القرآن الذي هو كلام المحبوب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك محبَّة كلام الله، فإنه من علامة حُبِّ الله، وإذا أردْتَ أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم».[1]

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.[2]

قال ابن جزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: غطَّى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب، فطمس بصائرهم».

١- الداء والدواء ٢٣٥
٢- المطففين: ١٤

قال عثمان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا، ما شبعت من كلام الله».

إن كنت تزعم حبّي فلِمْ هجرت كتابي

أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

والمحبون شجعان لا يكذبون ولا يغدرون؛ قال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يحب الله وَرَسُوله أويحبه اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَلْيُصَدِّقْ حَدِيثَهُ إِذَا حَدَّثَ وَلْيُؤَدِّ أَمَانَتَهُ إِذَا أُؤْتُمِنَ وَلِيُحْسِنَ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَهُ»[1]، فأحباب الله بركة كل مكان وزمان، هم حلول المشكلات وأسباب الحسنات.

ولذة الحب وممارسته تكون في طول المناجاة؛

انظر لجواب الكليم عليه السلام لما سأله محبوبه جل جلاله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[2] كان يكفيه أن يقول ﴿عَصَايَ﴾، فاستفاض وكرر وفسر وحكى حكاية عصا!! يريد أن يطيل الوصال.

١- صحيح مشكاة المصابيح ٣/ ١٣٩١

٢- طه: ١٨

جئتُ مستخفيًا وقد عرفوني فأنا تائب ترى يقبلوني
لي على الباب مُذْ وقفتُ زمانًا كُلّما رمتُ وصلهم منعوني
لم أكن للوصال أهلًا ولكن أنتمُ بالوصال أطمعتموني
فاجبروا كسر مُذنبٍ قد أتاكم يرتجي عفوكم بكم فارحموني
يا ولاة القلوب رفقاً بعبدٍ ضاع منه فؤاده فاعذروني
في بحار الهوى غرقت بوجدي طال شوقي لهم وقد تركوني
أيها النفس ساعديني وجدّي ويح قلبي ومهجتي هجروني

حب بلا فراق

حب الله هو الحب الوحيد الذي لا فراق فيه، فينفعك في قبرك وحشرك ونشرك، حين يكون شعار الجميع نفسي نفسي. «**أتاني جبريل، فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت، فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس**».[1]

وفي هذا الحديث أمارة أخرى لعمق الحب، وهي أن المحب لا يتخلى عن شرف المناجاة **في الصلاة** عمومًا: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[2] وفي عمق الليل خصوصًا؛ سواء بكلام المحبوب أو دعائه والطمع فيه واستغفاره وطلب الحوائج من بحر جوده.

١- السلسلة الصحيحة ٣/٨٣١

٢- صحيح سنن النسائي ٣/ ٨٢٧

قال سيد المحبين ﷺ: «ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سَماء الدُّنيا حينَ يَبْقى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِر، فيقولُ: مَنْ يدْعوني فأَستَجيبَ لهُ؟ مَنْ يَسْأَلُني فأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفرني فأغفرَ له؟».[1]

سئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما بال المتهجِّدين بالليل من أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم من نوره»، وقيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل: من أين أقبلت؟ فقال: «من الأنس بالله»، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.[2]

لو أن أنفاس العباد قصائد ... حفلت بمدحك في جلال علاكا

ما أدركت ما تستحقُّ وقصَّرتْ ... عن مجدِكَ الأسْمى وحُسْن سناكا

قال ﷺ: «يا بلال! أقم الصلاة أرحنا بها»[3].

١- متفق عليه

٢- السجدة : ١٦

٣- صحيح الجامع ٢/٧٨٩٢

فالراحة في ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[1] والحسرة والأسى عند فوات عبادة أو تركها.

- فاتت صلاة الجماعة حاتم الأصم، فصلّاها في البيت، فجلس يبكي لأنها فاتته.

- وعن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان إذا فاتته العشاء في جماعة، أحيا بقية ليلته.

- وفاتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلاة العصر مع جماعة، فتصدَّق بأرض قيمتها مائة ألف درهم.

وكل هذا يعبر عن وصفين على الأقل للمحبين؛ حب الصلاة «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[2]، وحب المداومة «**أحب العمل إلى الله أدومه**».[3]

١- العلق: ١٩

٢- صحيح سنن النسائي ٣/ ٨٢٧

٣- مسلم ٤/٢٨١٨

غيرة المحبين

والمحبون يغارون لمحبوبهم؛ فلا يسكتون عن منكر فضلًا عن المشاركة فيه؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ. وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ. وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**».[1]

وحكى ملك الملوك جل جلاله نبأ الغيرة لأجله فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.[2]

١- مسلم ٣/ ١٤٨١

٢- الأعراف: ١٦٤

والمحسنون يطيرون بالحب

ومن أحباب الله تعالى «المحسنون». فهم الذين بين شأنهم رسول الله ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».(١)

وهم الذين يأتمرون بأوامره في هذه الآيات الخمس:

١. ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.(٢)

٢. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.(٣)

٣. ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.(٤)

٤. ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.(٥)

١- متفق عليه
٢- البقرة: ١٩٥
٣- آل عمران: ١٣٤
٤- آل عمران: ١٤٨
٥- المائدة: ١٣

٥. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١]

المحبون المحسنون يترجمون الإحسان في أعمالهم بالإتقان في كل شيء، جاء عن سيد الخلق ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله يُحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه**»[٢]

سبحان الله، الاهتمام بالتفاصيل علامة حب الله تعالى!

١- المائدة: ٩٣

٢- صحيح الجامع ١/١٨٨٠

المتقون وطيران القلوب

ولا أشهر حبًا من المتقين؛ أخبر سبحانه بحبه لهم في ثلاثة مواطن:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١)

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٢)

﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٣)

إن المحبين أوفياء أقوى من نفوسهم وأقوى من الانتقام، إنها قوة: «**ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».(٤)

١- آل عمران ٧٦

٢- التوبة: ٤

٣- التوبة: ٧

٤- البخاري ٥/ ٢٢٦٧

ومن الأحباب المقسطون

فرب العزة عدل يحب العدل وخلق الكون كله بالحق والعدل، والمحبون كما ذكرنا هم من ضرورات الحياة والوجود، فلزم أن يكونوا جنود العدل؛ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.(١)

وقال: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.(٢)

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.(٣)

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ، عِنْدَ الله، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ. عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ** عَزَّوَجَلَّ. **وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ؛ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وما ولوا**».(٤)

١- المائدة: ٤٢

٢- الحجرات: ٩

٣- الممتحنة: ٨

٤- مسلم ٣/ ١٤٥٨

استقرت قدرة الله في وجدانهم فتوكلوا عليه حق **التوكل**، حتى صار وصفهم في كتابه ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]، والتوكل اندماج اليقين بالرضا، فهم مصدقون وعده مؤمنون بالثقة في قدرته سبحانه ومع ذلك راضون باختياره وتقديره.

جمعوا قمة الصفات في قلوبهم وصفوها صفًا في أقوالهم وأفعالهم؛ «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[2]، يخافون الله، ويستغنون عن خلقه، ولا يبالون بالظهور بينهم.

دائمون **الذكر** لمحبوبهم: «**إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ**».[3]

حتى يلقوا الله على ذلك: «**أحب الأعمال إلى الله أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله**».[4]

معاملتهم كالبلسم بين الخلق؛ «**إن الله يحب سمح البيع سمح الشراء، سمح القضاء**».[5]، «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**».[6]

١- آل عمران: ١٥٩

٢- مسلم ٤/٢٩٦٥

٣- متفق عليه، واللفظ لمسلم

٤- صحيح الجامع ١/١٦٥

٥- صحيح لغيره، صحيح الترغيب والترهيب ٢/١٧٤٨

٦- متفق عليه

حب يمشي على الأرض

هذا الحديث يحكي سر أحباب الله وأنهم إذا عدموا، خلق الله غيرهم، السر هو أنهم رحمته على الأرض، قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الناسِ إلى الله أنْفَعُهم لِلنَّاسِ، وأحبُّ الأعْمالِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ سرورٌ تُدْخِلُه على مسلمٍ، تَكْشِفُ عنه كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عنه دَيْنًا، أوْ تَطْرُدُ عنه جُوعًا، ولأَنْ أَمْشي مَعَ أخٍ في حاجَة؛ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ أعْتَكِفَ في هذا المسجِدِ -يعني مسجدَ المدينَةِ- شَهْراً، ومَنْ كَظَم غيْظَهُ ولو شاءَ أنْ يُمْضِيَهُ أمْضاهُ، ملأَ الله قلْبَهُ يومَ القيامَةِ رِضًا، ومَنْ مَشى مَع أخيه في حاجَةٍ حتى يَقْضِيَها له،ثَبَّتَ الله قدَميْه يومَ تزولُ الأقْدامُ»[1]

الخطوات نبضات!

«حقَّت محبتي للمتحابين فيَّ..

وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ..

وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ..

وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ».[2]

١- صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٧٠٩

٢- صحيح الترغبيب والترهيب ٣/٢٠٣٠

المجاهدة والمداومة علامة المحب

دائمون التقرب لمحبوبهم لا يسأمون ولا يكتفون؛ وروى أبو هريرة أنَّ النبي محمدًا ﷺ، قال:

«إنَّ الله قالَ: مَن عادَى لي وليًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ».[1]

١- البخاري ٥/٦١٣٧

فاللهم هذا حبك يا محبوبنا..

فاجعله في كل نبضة من قلوبنا..

نسألك حبك وعافيتك..

فإنهما خير ما سئلت، وخير ما أجبت..

لا إله إلا أنت..

وكان ختام هذا الكتاب في أحب بلاد الله إلى الله..

مكة المكرمة..

جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ - ديسمبر ٢٠٢٣

وصلى الله على نبينا محمد..

وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس
الكتاب

فهرس الكتاب

مقدمة ---------- ٥

فصول الكتاب ---------- ١١

١- سماء النجاة ---------- ١٣

يطلبون النجاة في أحلامهم! ---------- ٢١

النجاة مرهونة بالتطهر من الذنوب! ---------- ٢٥

كل قلب ذاق النجاة ---------- ٢٦

وفي كل مرة ربك ينجيك ---------- ٢٨

رسول النجاة ﷺ ---------- ٣٠

هل ستنجو؟ ---------- ٣١

والداعية هو قبطان النجاة ---------- ٣٣

والنجاة لا تحابي! ---------- ٣٥

عمر يخاف فوات النجاة ---------- ٣٩

الحبيب ﷺ يجيب السائلين عن النجاة ---------- ٤٢

٢- سماء الفرار ---------- ٤٥

لكن كيف أفر إليه؟! ---------- ٤٧

أكثر آية تجبر خاطري ---------- ٥٠

ما هو أول اسم عرفه رسول الله ﷺ من الاسماء الحسنى؟------٥٨
الفرار الأصعب----------٥٣
٣- سماء الاستجابة----------٥٥
شيء لا يصدق. صم، ولكن كأنهم يسمعون!----------٥٧
أنواع ضعف السمع----------٦٤
دواء الصمم----------٧١
واها لعذاب النار بالسمع والصمم!----------٧٤
نعيم الجنة بالسمع والصمم!----------٧٩
٤- سماء الخشية----------٨٧
الخوف ليس هو البكاء----------٨٩
الملائكة تخاف!----------٩٠
والأنبياء المعصومون يخافون!----------٩١
خطر اجتناب الخوف----------٩٣
جزاء الخائفين----------٩٨
لماذا يحب الله الذين يخافونه؟----------١٠٠
تعالوا نخاف بالحب، ونحب بالخوف----------١٠٦
مم نخاف؟----------١٠٧

خوف عمر رضي الله عنه ---------- ١١٢

٥- سماء الرجاء ---------- ١١٥

ما الرجاء؟ ---------- ١١٨

الرجاء للجميع ---------- ١٢٨

هل تعرفون ابتسامة الواثق؟! ---------- ١٢٩

حتى رؤية الكفار تدعو للرجاء! ---------- ١٣٨

٦- سماء الإخلاص ---------- ١٤٣

وقفة! ---------- ١٤٦

هل تطيق أن تعيش بدون علاقة بالله؟! ---------- ١٥٠

الإخلاص ينصرك على الشيطان ---------- ١٥٣

خبراء الطيران في سماء الإخلاص ---------- ١٥٧

ما الإخلاص؟ ---------- ١٥٩

فرض أم شرط؟ ---------- ١٦٢

قلب المخلص غني قنوع! ---------- ١٦٥

كيف نكون من المخلصين؟ ---------- ١٦٨

أولًا: صدق اللجوء إلى الله: ---------- ١٦٨

ثانيًا: أن تنظر إلى غنى الله وسلطانه على من ترائيه: -- ١٧٠

ثالثًا: مراقبة الله ودوام المحاسبة:----------١٧٢
رابعًا: دوام والمثابرة والتصحيح----------١٧٤
خامسًا: اتهام العمل والاستغفار:----------١٧٧
سادسًا: مخالفة الهوى:----------١٨٢
سابعًا: قصر الأمل واستحضار الأجل----------١٨٦
ثامنًا: اعمل لنفسك----------١٩٠
تاسعًا: استسهال المجاهدة والتلذذ بها----------١٩٢
عاشرًا: استشعار أن الراحة في الإخلاص!----------١٩٥
علامات المخلصين----------١٩٦
١- البركة والأثر----------١٩٦
٢. المحبة في الأرض----------١٩٧
٣. الهدوء والراحة وهجر المنافسة وحب الخمول.----١٩٨
٤. علو الهمة----------٢٠١
الهمَّة مَحَلهَا القلب----------٢٠٢
٥. والمخلصون طيارون----------٢٠٤
٧- سماء الحب----------٢٠٧
حديث الحب----------٢١٨

حب الحبيب ﷺ----------٢٢٢
حب الصحابة والصالحين----------٢٢٤
هل من حقك أن تقول: الله يحبني؟!----------٢٢٧
هل يليق الحب بلا أدب؟----------٢٢٩
الخوف على الحب----------٢٣١
علامات الحب----------٢٣٢
حب بلا فراق----------٢٣٦
غيرة المحبين----------٢٣٩
والمحسنون يطيرون بالحب----------٢٤٠
المتقون وطيران القلوب----------٢٤٢
ومن الأحباب المقسطون----------٢٤٣
حب يمشي على الأرض----------٢٤٥
المجاهدة والمداومة علامة المحب----------٢٤٦

قارئي الحبيب ..

إن كنت لا تهوى القراءة فهذا الكتاب رحلة طيران

وإن كنت تحب الطيران فطيران القلوب ألذ

وإليك هذا الكتاب لترتقي بقلبك

فوق السحاب ..

عمرو ..